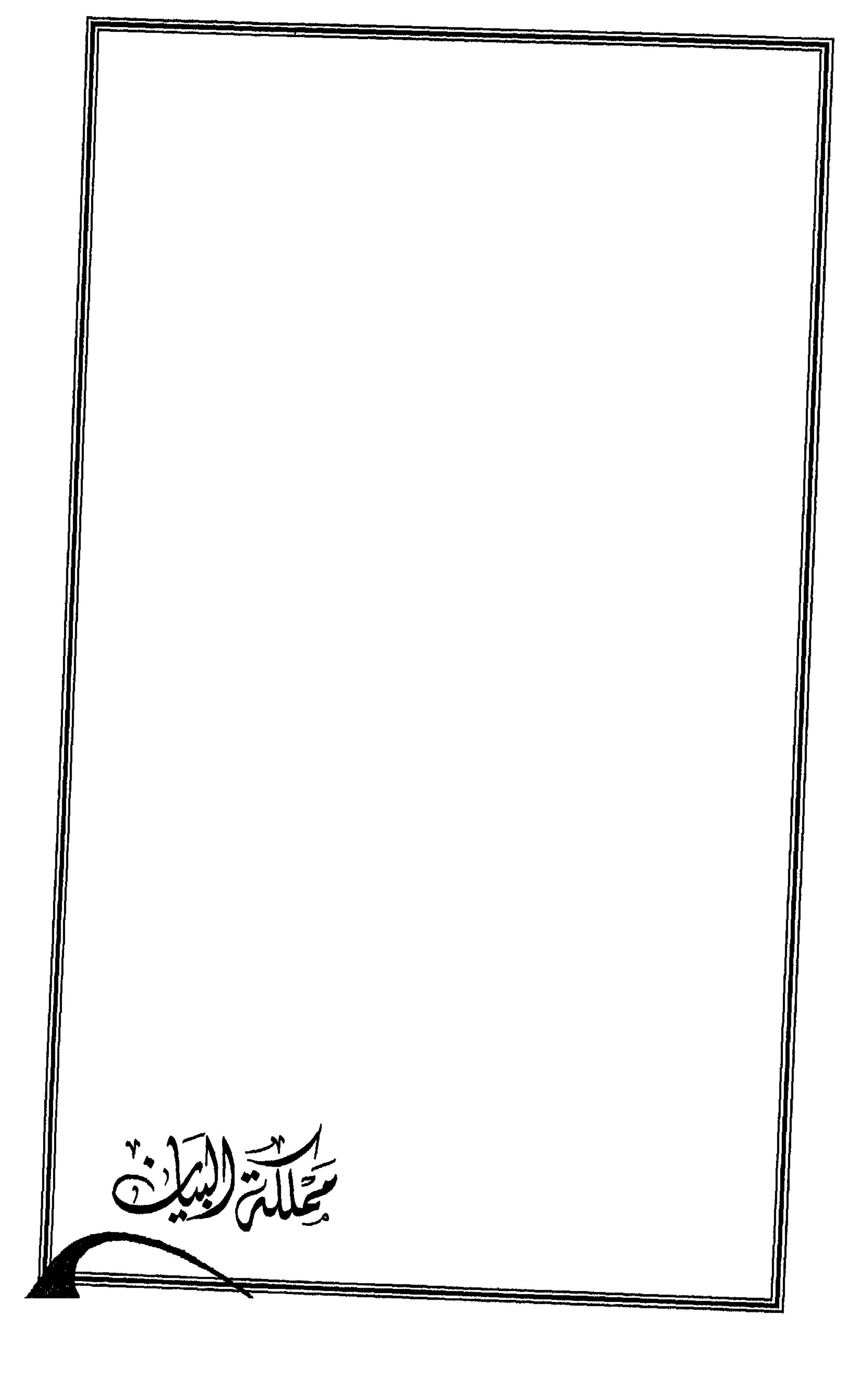
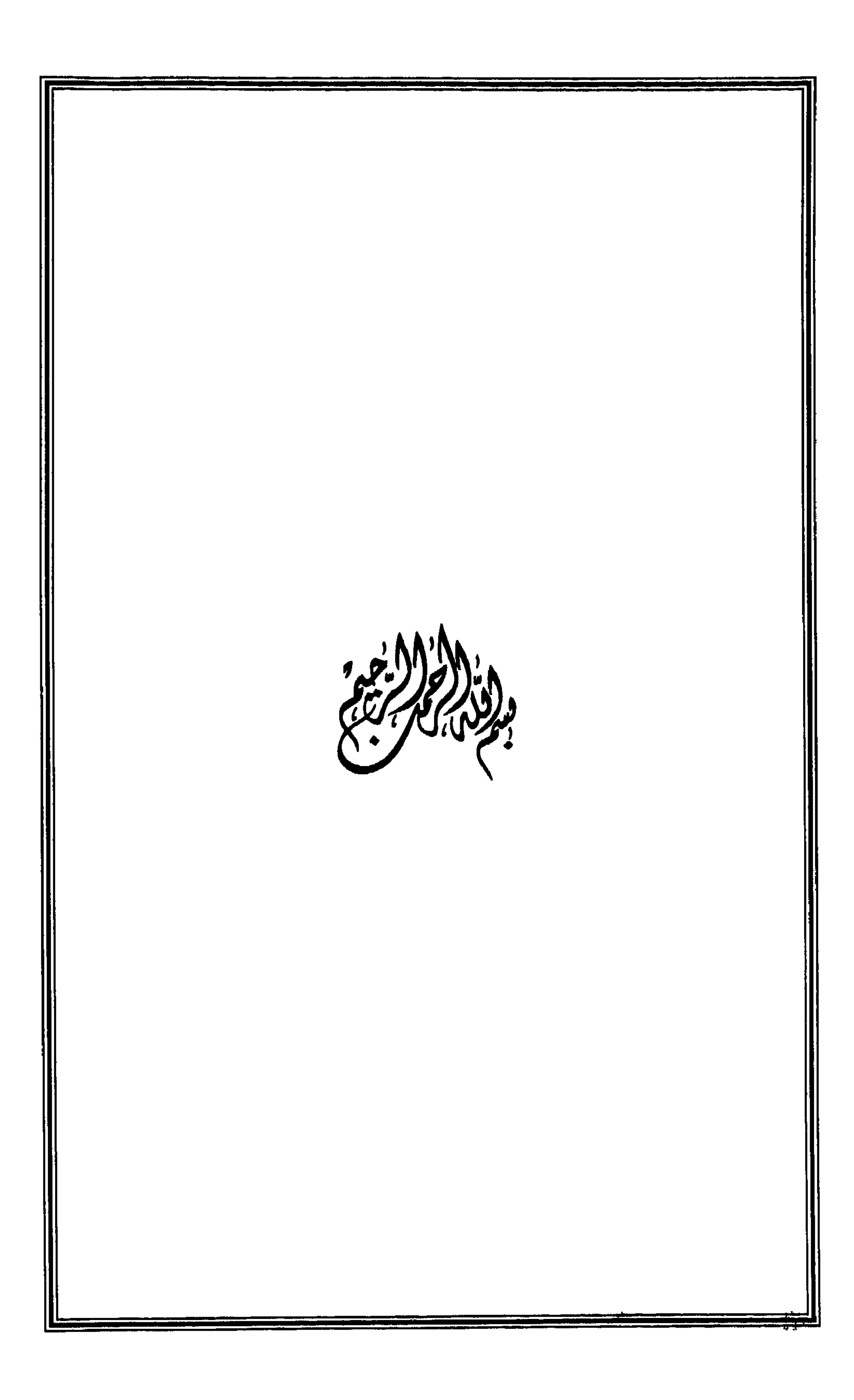


مملكة
البيان
د. عائض بن عبد الله القرني
دار ابن حزم


مملكة البيان


بسم الله الرحمن الرحيم



بقلم
د. عائض بن عبد الله القرني

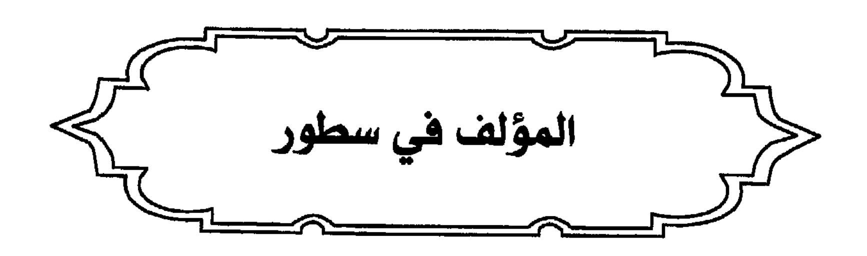
دار ابن حزم

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤



المؤلف في سطور

- عائض بن عبدالله بن عائض آل مجدوع القرني.
- من مواليد عام ١٣٧٩هـ ببلاد القرن جنوب المملكة العربية السعودية.
- حصل على الشهادة الجامعية من كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤هـ.
- حصل على الماجستير في الحديث النبوي عام ١٤٠٨هـ وعنوان رسالته «البدعة وأثرها في الدراية والرواية».
- حصل على الدكتوراه من جامعة الإمام عام ١٤٢٢هـ بعنوان «دراسة وتحقيق كتاب المفهم على صحيح مسلم للقرطبي».
- له أكثر من ثمانمائة شريط كاسيت إسلامي في الخطب والدروس والمحاضرات والأمسيات الشعرية والندوات الأدبية.
- يحفظ القرآن الكريم وكتاب بلوغ المرام ويستحضر ما يقارب من خمسة آلاف حديث وأكثر من عشرة آلاف بيت شعر.
- له أربعة دواوين شعرية هي:

  ١ ـ لحن الخلود.

  ٢ ـ تاج المدائح.

  ٣ ـ هدايا وتحايا.

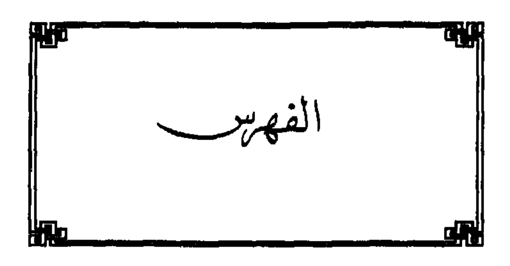
  ٤ ـ قصة الطموح.

- أما مؤلفاته: فقد ألّف في الحديث والتفسير والفقه والأدب والسيرة والتراجم، ومن مؤلفاته التي أصدرتها دار ابن حزم بلبنان:

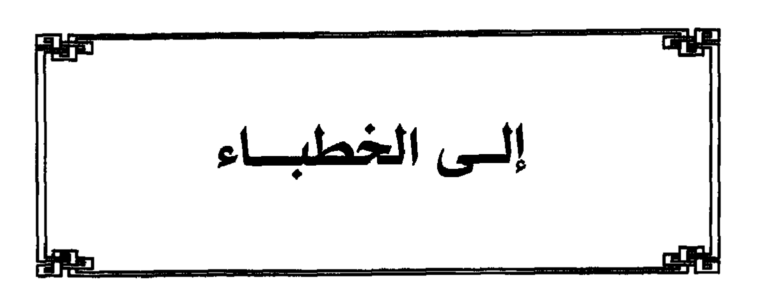
١ - الإسلام وقضايا العصر.
٢ - تاج المدائح.
٣ - ثلاثون سبباً للسعادة.
٤ - دروس المسجد في رمضان.
٥ - فاعلم أنه لا إله إلا الله.
٦ - مجتمع المُثل.
٧ - ورد المسلم والمسلمة.
٨ - فقه الدليل.
٩ - نونية القرني.
١٠ - المعجزة الخالدة.
١١ - اقرأ باسم ربك.
١٢ - تحف نبوية.
١٣ - حتى تكون أسعد الناس.
١٤ - سياط القلوب.
١٥ - فتية آمنوا بربهم.
١٦ - هكذا قال لنا المعلم.
١٧ - ولكن كونوا ربانيين.
١٨ - من موحد إلى ملحد.
١٩ - إمبراطور الشعراء.
٢٠ - وحي الذاكرة.
٢١ - إلى الذين أسرفوا على أنفسهم.
٢٢ - ترجمان السنة.
٢٣ - حدائق ذات بهجة.
٢٤ - العظمة.
٢٥ - لا تحزن.
٢٦ - وجاءت سكرة الموت بالحق.
٢٧ - مقامات القرني.
٢٨ - احفظ الله يحفظك.
٢٩ - أعذب الشعر.

- حضر عشرات المحاضرات والأمسيات، وحضر مؤتمر الشباب العربي المسلم ومؤتمر الكتاب والسنة بالولايات المتحدة الأمريكية، وحاضر في الأندية الأدبية والرياضية وحاضر في الجامعات والملتقيات الثقافية.





الفهرس



إلى الخطباء

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

أنا أعلم أني لا زلت شابّاً والكثير يكبرني سنّاً ويفوقني علماً ونبلاً وفضلاً، لكنني قرأت كتباً ورسائل في فن الخطابة لمسلمين وغير مسلمين، وسوف أذكر بعضها في هذا البحث.

وعشت زمناً أحاول أن أطبِّق ما أقرأ من فن الأداء والإلقاء والأسلوب والعرض، فأصيب حيناً وأخطىء أحياناً.

فأقمت في مدن كثيرة فلم أجد ذلكم الخطيب الذي يخلب الألباب ويهزُّ القلوب ويملك المشاعر.

نعم! هناك علماء وقضاة ودعاة، ولكن لم ألق خطباء بمعنىٰ هذه الكلمة إلا الواحد أو الاثنين أو الثلاثة مع ملاحظات.

من هو الخطيب الذي يمكن أن يسكب في قلوبنا الحياة والتأثير والإِقناع؟

من هو الخطيب الذي نسلِّم له نفوسنا ليصقلها ويطوِّعها ويهديها سواء السبيل؟

من هو هذا الخطيب الذي يصل بصوته إلى ضمائرنا فيجتث منها الخواطر الخاطئة والأفكار المغلوطة، ويصل بحجَّته إلى قلوبنا فيقتلع منها هواجس السوء ووساوس الشيطان؟!

لقد قرأت عن عشرات الخطباء المسلمين وغير المسلمين، شرقيين وغربيين، تركوا في أممهم أثراً بيّناً بخطبهم ومواعظهم، ولكن هل تحسُّ منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً؟

كل هذا الخلق غرٌّ وأنا ... منهم فاترك تفاصيل الجمل

رأيت على المنابر من يقرأ علينا صحفاً اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً.

يسردها علينا سرداً بلا تأثير ولا جاذبية، ولا أداء ولا حرارة، ولا ظل ولا طل.

ورأيت من يغطي وجهه بأوراقه عند الإلقاء فهو محجوب عن الناس طيلة الخطبة، يريد أن ينتهي من هذه الأوراق ليلقي عن نفسه تبعة الخطبة.

وهناك من يخطب فيتلعثم من شدة الخوف ويرتبك من الخجل والوجل، يكاد إذا صعد المنبر أن يولي فراراً ويمتلىء رعباً.

نعم.. العلم شيء والخطابة شيء آخر.

أجل.. التقوى والفضل والمكانة محاسن، والخطابة حسنة أخرى.

في هؤلاء من يحسن الإلقاء والأداء، ولكنه ضحل المادة بخيل في عطائه ومحصوله، فكأنه ما قال شيئاً.

وفيهم صاحب الحجة والبرهان الحافظ المطّلع على كنوز الميراث وذخائر العلوم، ولكنه بارد.

في صوته خيوط النعاس ومقدّمات الكَرى.

وأظن أن الخطابة ليست جمعاً لأطراف الموضوع بلا فصاحة وأداء وإلقاء وتأثير.

وليست صوتاً صارخاً صاخباً بلا حجة وإقناع وجاذبية.

إن الخطابة قلب شجاع، ولسان فصيح، ومادة حيَّة، وذاكرة واعية، وبديهة لمَّاحة، وإشارة موحية، ونبرة فخمة، وأداء خلاّب، وحجة بالغة، ونفس متوثبة مجنحة.

وهي استيلاء على المشاعر، وامتلاك للعواطف، وقدرة على جذب النفوس.

وفكر لا اعوجاج فيه، ونفس صحيحة من الأدواء، وعقل مسدد، ولسان سليم من عيوب الأداء.

وشخصية قديرة متألقة، وبرهان يقذف به على الباطل والزيف فيدمغه.

نحن بحاجة إلى مِران طويل على مخاطبة الناس، ودُربة واسعة على الإِلقاء والتأثير، تقوم بهذا مؤسسات ومدارس وجامعات تُعنى بهذه الجوانب عنايةً فائقة.

إنّ الجموع فقيرة إلى خطيب مفوّه تصل كلماته إلى الأعمال، ولكل نبأ مستقر.

وإن دعاة الفضيلة هم بحاجة ماسة إلى معرفة الطرق إلى

القلوب، والسبل إلى النفوس، بقراءة مكامن التأثير والتأثر، والاطلاع على أسرار الجذب والإقناع.

إن الخطبة جمعية من المواهب والقُدرات تجتمع في شخص واحد يملك ناصية البيان وزمام الفصاحة والتميّز في الإِيقاع.

يقولون: إن الخطيب الملهم الفصيح يجد الناس في صوته وأدائه وعرضه متعة لا يجدونها في مشاهدة الحدائق الغنّاء أو سماع خرير الجداول وهمس النسيم وهديل الحمام.

وسيد الخطباء وأنبل العظماء هو رسولنا ﷺ، ومن أراد بيان ذلك فعليه أن يطالع في خطبه، ويطالع كلماته وأحاديثه، ليجد البيان في أبهىٰ صوره، والفصاحة في أوج علوّها.

وكذلك خلفاؤه الراشدون، وجمع من السلف الصالح كابن عباس وابن الزبير ومعاوية وعبدالملك بن مروان.

ومن بعدهم كأبي جعفر المنصور والمأمون وكثيرون لا يُحصَون عدداً، ومن أراد المزيد فعليه بكتاب محمد أبي زهرة في الخطابة، وكتاب (خطباء صنعوا التاريخ) لأحمد نور، و(فن الخطابة) لدايل كارنجي، وغيرهم كثير.

والقاسم المشترك بين هؤلاء جميعاً هو القدرة على الاستيلاء على المشاعر وامتلاك العواطف والاستحواذ على النفوس.

هناك قطعة من البيان يقولها شخص فلا تقع موقعها ولا تتجاوز صوت قائلها، وهي في نفسها بديعة باهرة.

ويلقي هذه القطعة شخص آخر فيوصلها إلى نفوس السامعين، فيخاطب الأغوار والأعماق ويهبط إلى القرار.. والكلام هو هو ولكن شتان ما بين الخطيبين.

المبادىء الحقة تقوم في غالب أحوالها ومجمل أطوارها على أيدي خطباء لُسُن.

زرع الفضائل واقتلاع الرذائل فنٌّ يقدِّمه الخطباء.

إشعال الحروب والزحف إلى الموت واحتساء المنية ينسجها خطيب مؤثر.

إسكات غضب النفوس وإطفاء الثائرة وقتل الأحقاد وبتر الضغائن يضطلع بها خطيب نابغة.

لماذا لا يكون الخطيب مشبوب العاطفة، عارم الفطنة، جيَّاش الخاطر، مُلهِب الإحساس، متَّقد الضمير، لمَّاح الإشارة، خاطفاً للأضواء، حيَّ البديهة، هادر الصوت، ساحر الأداء، حلو الإيراد، قوي البرهان، غزير المادة؟

وما أقل اجتماع هذه المواهب في شخص: إن حَسُن الإعداد ضعف الإلقاء، وإن انقدحت البديهة ارتبك اللسان، وإن جنحت الروح خفت الصوت.

اللسان المعبِّر:

دعا موسى عليه السلام ربَّه فقال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧﴾ [طه: ٢٧]، إن اللسان الفصيح يفعل في القلوب فعل السحر، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**وإن من البيان لسحراً**»[1].

اللسان الفصيح هو الذي يخلب الألباب ويسري أثره إلى أعماق النفس ويخاطب الوجدان.

اللسان الفصيح آلة طيِّعة يمتلكها الخطيب الفذُّ القدير، يصوغ بها هالات من المعاني ويرسم بها لوحات موحية من البيان.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥١٤٦، ٥٧٦٧)، وأحمد برقم (٤٦٣٧، ٥٢١٠، ٥٢٦٩)، وأبو داود برقم (٥٠٠٧)، والترمذي برقم (٢٠٢٨)، وغيرهم.

اللسان الفصيح هو الذي يقدم الحروف للسامع سليمة من العيوب، وصحيحة في مخارجها، صادقة في جرسها، أخاذة في إيقاعها، ينطق الكلمات بل عُجمة ولا لحن ولا تعثر، بعيداً عن الارتباك والالتواء والبرود.

اللِّسان البليغ يدمغ بالحجج، ويفلج بالبراهين، وتنثال منه الجمل طليقة هادرة.

لسان فخم وفيه جاذبية.

قوي وفيه أسر.

صارخ وفيه سحر.

نافذ وفيه حلاوة وطلاوة.

اللسان الفصيح كالسيف البتار يجلو الشبه، ويقطع خيوط الأوهام، ويفصم عُرى الباطل.

يقول الله عزَّ وجل لرسوله ﷺ: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النّساء: ٦٣]، وهذا واجب الداعية أن يبدع في مقاله ويحسن من لفظه ويصلح من لسانه.

إن العيّ مرض في اللسان يذهب رونقه وبهاءه ومضاءه فلا يكاد يُبين.

ولا بد من شحذ اللسان بالدُّربة والمران والتقويم والتهذيب وإمرار المحفوظات والمقطوعات عليه كثيراً.

إن سرَّ نباهة الخطيب في لسانه الذي يسعفه في الأزمات وينقذه في الورطات.

يزمجر به في الجموع، فله في الحشود جلجلة الرعد، وهدير السيول، وقصف الصواعق، وجلبة الريح الهوجاء التي لا تلوي على شيء.

يتدفق بالجمل والعبارات في نسق جميل وفي نظام بديع بلا ركاكة أو برودة أو ثقل.

يملأ الآذان مخافة والقلب هيبة والمكان حضوراً، بل يأسر المشاعر أسراً، فإما مناً بعد وإما فداء.

شجاعة الخطيب:

تكمن شجاعة الخطيب في رباطة جأشه وسكون خاطره واطمئنان نفسه، فهو يواجه الجموع وعليه السكينة واثقاً من نفسه مؤمناً بما يقول، قديراً على ضبط الموقف.

الخطيب الشجاع يهدأ أحياناً في موقف الهدوء فيلطف صوته وتخف نبرته، ويزمجر في موقف الإثارة والقوة فيشد الحاضرين.

ويلهب القلوب بسياط وعظه، ويصكُّ صوته الآذان فتصل حرارة كلماته إلى سويداء القلوب.

إن أول الفشل هو جبن الخطيب وخوره، فما أن يشعر بالضعف والانهزام وترتجف أعضاؤه ويتلعثم لسانه ويسيل عرقه، حينها تسأل كم هو الإحراج الذي يعيشه سامعوه فضلاً عنه، وهذا هو سقوط الخطيب صراحة.

كيف يؤثر في الجموع من يرهَبها؟ وكيف يستولي على قلوبها من يخجل منها؟

إن قوة القلب في مواجهة الناس مدد عظيم يمنحه الله أهل القدرات والمواهب، فيجدون في مخاطبة الجماهير سلوةً وحياةً ومتعة، فكلَّما كثر الجمع زاد أحدهم قوة وجاذبية وتوقُّداً ولموعاً.

ولقد قرأت لخطيب شهير وهو يقسم قسماً أنه كلَّما كثر الجمع عليه وازدحم الناس إليه كلَّما زاده ذلك قوة في الأداء، وزيادة في العطاء، وجَودة في الإلقاء، وسخاءً في الجمل، وبراعة في العرض.

ابن الزبير يخطب في أتباعه وبروق المنايا فوق الحرم، وقذائف

المنجنيق تهوي عليه من جبال مكة، وقلبه في عنفوان ثباته بارد الأعصاب متماسك القوىٰ لأنه يحمل مبدأ.

وذاك طارق بن زياد يستعرض جيشاً مدججاً بالسلاح فينثر عليهم خطبة حية من أبرع خطب التاريخ، وهو يرتجلها في يوم عصيب.

أول الفشل الشعور بالفشل.

والإخفاق ابنٌ بارٌّ للجبن.

والتفوق تاج للمُقْدِمين الشجعان.

بديهة لمَّاحة:

من أبرز صفات الخطيب الفائق أنه صاحب بديهة حاضرة تسعفه أبداً، كلَّما احتاج لها يعود إليها، كلَّما احتدمت خواطره وتدافعت أفكاره ووقع في لبس تقدح له بديهته زند العطاء بلا تأخر.

إن هناك مواقف تمرُّ بالخطيب لم يضرب لها حساباً تفجؤه فيها، وحوادث وقضايا وطوارىء وأفكاراً، فإن لم تكن لديه بديهة وقع في الارتباك وأُفحم وانقطع.

إن اللحظات المفاجئة لا تنتظر من يحضر لها ويتمهل في طلب الإجابة.

لا.. بل الآن تريد إجابة سريعة مناسبة.

خطباء التاريخ أهل بَدَائِه، يجدون في أذهانهم مدداً لكل مناسبة، وحديثاً لكل حادثة. يقول أحدهم فلا يخطىء، ويجيب فلا يبطىء.

ماذا يفعل الخطيب البارد لو قاطعه رجل لَسِن ذو جدل وخالفه في قضية وأورد عليه إشكالاً لم يكن في حسبانه؟! حينها يقع الفشل أمام الجمع ويحصل الانحدار بل السقوط.

بداية منسابة:

يبدأ الخطيب الذكي هادئ الصوت خافت النبرة، ثم ينتعش رويداً رويداً، فيعلو صوته ثم يعلو ثم يتعاظم، ثمَّ يتفجَّر في وسط خطبته إن كانت من الخطب الزاجرة الرادعة المهيجة.

ليس للخطيب أن يبدأ صارخاً مفجوعاً.

لماذا؟ وما هي المناسبة؟

كان الحجاج مضرب المثل في جودة الخطابة، يقف على المنبر وأياديه في أكمام ثوبه، فيتكلَّم فلا يسمعه إلا من كان قريباً من المنبر، ثم يعلو صوته ويهدر ويتهدَّج وتبرز يداه، فيمتلك المكان بدوِيِّ صوته الضخم حتى يسمعه أهل الأسواق.

والمقصود هنا البداية الهادئة المطمئنة.

نفس متوثبة:

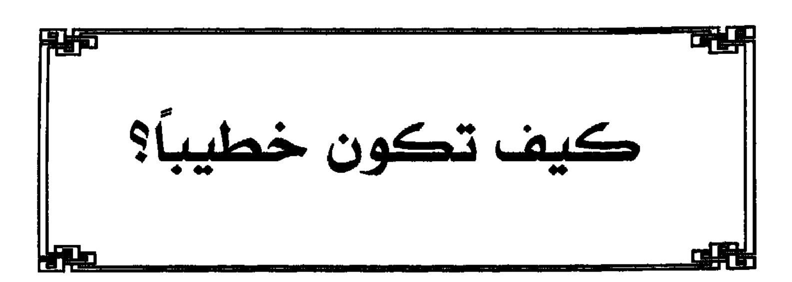
لا بد أن تكون نفس الخطيب حية متوثبة مفعمة بما تقول، تكاد تسيل مع كلماته وعباراته، ترسل على السامعين حرارة وأثراً؛ لأن النفس الباردة لا تصلح أن تقدم عطاءً للآخرين.

إن تفاعل الخطيب بما يقول هو أول باب من أبواب النجاح والتفوق واللموع.

إن النفس الغافلة عما يقول صاحبها، البعيدة عن حديثه وكلماته، لا تشعُّ على الآخرين ولا تتصل بنفوسهم ولا تمازج وجدانهم.

فلا ينبغي للخطيب أن يواجه النَّاس بنفس فاترة كالَّة، فإن هذا العيب يجري على الكلام فيلقي الكلام ببرود.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.



كيف تكون خطيباً؟

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على أجلّ خطيب وأنبل إمام، وعلى آله وصحبه ما شدا حمام، وهطل غمام، واكتمل بدر التمام.

أما بعد:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

والكلمة الطيبة تقيم مبادىء، وتنعش أرواحاً وتحرك أجيالاً وتبني شعوباً، والكلمة الطيبة تصلح خطأ وتنصب عدلاً وتدحض باطلاً وتسحق زيفاً، والكلمة الطيبة طريق إلى العمل، واستفادة من الماضي، ونشيد حماس لليوم، وأمل واعد للمستقبل.

وأقوى ما تكون الكلمة على منبر الوعظ يوم تطرق الرؤوس وتُسكت النفوس، فتشرئب الأعين ويسود الصمت، لا تسمع إلا همساً، حينها ينتصب الخطيب ويتدفق لسانه بالحجج، وتنساب نغماته في الأرواح انسياب الماء في العود، والحُب في المهج، والنور في التيار.

يصنع الخطيب القدير بوعظه من الشعوب التابعة الذليلة أمةً مشبوبة الجوى، عارمة المسير، قوية الهمة، باسلة العطاء، حاملة الفداء.

وينسج الخطيب الخطير بكلامه من الأمة العاطلة المسكينة أمة عاملة منتجة فاعلة، تبني وتغرس، وتكتب وتقرأ، وتعطي وتدافع.

أول ما فعله ﷺ بأمة الصحراء أن خطبهم ووعظهم وبشرهم وأنذرهم وأمرهم ونهاهم؛ فتحول عُبّاد الأوثان إلى أئمة طُهر، ونجوم هدى، وتحوّل الحجيج إلى مرابطين في الثغور، وشعراء الخمر والمجون إلى أدباء للحكمة وشُداة للحق، والأعراب الجفاة إلى عبّاد ترجف أعضاؤهم في السَّحَر بالخشية. والرسول ﷺ أعظم الخطباء كما قيل:

ما بنى جملة من اللفظ إلا وابتنى اللفظ أمة من عفاء

إن اللسان الصادق البليغ يفعل في الأمم فعل الجيوش الجرارة والكتائب الهادرة والجنود المغامرين.

واللسان الصادق البليغ يخاطب الأرواح مباشرة، ويناجي الخَلَد بلا حجاب، ويشاجي البصائر بما أراد.

وبالخطبة المؤثرة الواصلة يدرك حداة الحق وروّاد الفضيلة مطالبهم، فعند سماع الخطبة يشجع الجبان ويسخو البخيل وينبل الخامل ويجاهد القاعد ويثابر المحطَّم.

وعند سماع الخطبة يُطعَم الفقير ويُكسى العاري ويُعان المنكوب ويُمسَح دم المصاب.

الخُطب الهادرة الطنّانة تشعل الحماس في رؤوس المقاتلين والغيرة في نفوس المدافعين.

وبلغاء الخطباء يشعلون الحمية في أفئدة أبطال الكفاح، ويدعون إذا ادْلَهَمَّ خطْبٌ ووقعت واقعةٌ وحلّت داهية ليقولوا كلمتهم في الحشود ويلقوا عصا الحجة في الجموع، فإذا هي تلقف كل باطل وتلتهم كل حدث.

بلغاء الخطباء ينسجون في وقفة واحدة تاريخاً طويلاً، وينظمون في لحظة قصيرة آمالاً كبيرة.

إن انتصرت الأمة مجّدوها حتى تصل هامتها الثريّا، وإن غُلبت رفعوها ولو كان رأسها على الثرى.

إن خطبوا في فن الشجاعة هوّنوا الموت على الجنود حتى كأنه حضور مهرجان ومشاهدة حدائق ذات أفنان، ورغّبوا الجيوش في البسالة حتى كأن الحياة بلا موت لا شيء، والبقاء بلا دفاع فناء، والعيش بلا نضال عار.

يهوّنون شأن العدو حتى كأن سيوفهم أقلام كاتبين ورماحهم أغصان لاعبين:

فمَن في كفِّه منهم قناة كمن في كفِّه منهم خِضاب

وإن خطبوا في الأغنياء ملتمسين البذل والسخاء جعلوا العطاء حياة والإمساك موتاً والإنفاق سعادة والقبض شقاء، فعلى زجل كلامهم تنهلُّ الدراهم والدنانير، ومع وقع عباراتهم يسقط الذهب والفضة، وبخطبهم تفرغ القناطير المقنطرة من أكياسها، وتخرج الكنوز من أكداسها.

يخطبون في الفقراء فيحيلون مرارة العدم إلى السعادة، وبذاذة البؤس إلى المكرمة؛ فإذا الفقير محسود بفقره مغبوط بعدمه، يرى أن فقره سبيل إلى قلصة التبعة، وخفة السير، وضحالة الخطايا، وارتياح الروح.

ويخطبون في المنكوبين، فإذا تيجان المدائح على رؤوسهم وألوية الفضل تخفق فوق هاماتهم، فكل منكوب يُرى أنه مجتبى بنكبته، مصطفى بمصيبته.

والخطباء اللامعون يحيلون بجلال العبارة وقدسيَّة الكلمة صدمة الهزيمة إلى انتصار، وهزّة الفاجعة إلى استعلاء.

وهل الأحداث والوقائع والمثلات إلّا نتائج للكلمات الملتهبة والخطب المجنّحة الهادرة؟

خطب ﷺ خطبة ضافية في بدر قرّبت الجنة لعشاق السعادة، وبغّضت البقاء عند محبي الدنيا، وسهلت الموت على طالبيه والقتل على راغبيه، فتسابق المؤمنون على وقع كلامه ﷺ وكأنهم في صراع الأعداء يلجون أبواب الجنة الثمانية، وفي نزال الكفار يطوفون بالكوثر، وفي حزّ هامات الوثنيين يحسون الكأس الدهاق في جنة عدن.

وخطب ﷺ قبل أُحد بيوم فأبى الأبطال البقاء في المدينة وحثّوا السير إلى أُحد، ورنين الخطبة في الآذان كأنها طلائع الجيوش ورايات الكتائب وأعلام الجنود.

ولما مات ﷺ وقع الخطب الجلل والحدث، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فعزّى في المصاب وسَلّى في الخطب ودمل الجراح ومسح الدمع، وأعاد للهمم توقُّدها وللنفوس إشراقها وللضمائر حياتها.

فكأن الكلام الذي ارتجله كلام جديد هبط من الغيب على أجنحة القبول، وهبط من الفلك على أوسمة المحبة.

عبر طارق بن زياد البحر ولقي العالَم الكافر واحتدم الهول وقامت قيامة الأبطال، فهتف بخطبة طنّت لها آذان الشجعان، ورنت لها رماح الأقران، وتقدَّم على صليلها الجبان، فهو يزبد ويرعد والصفوف تتقدم والمنايا تقع على الرؤوس والموت يداعب النفوس، فإذا جيش المسلمين على هدير خطبة طارق يطرق باب الفتح ويدق جرس الانتصار ويعفّر أنوف الطغام برغام المعركة.

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا خطب فجّر ينابيع البيان، يأخذ الأرواح طواعية ويأسر النفوس أسراً، ويكسر جماجم الفصاحة على رؤوس الشهود كسراً.

يرتجل الخطبة فكأن كل جملة لوحة هائمة في الجمال، روعة في الحسن، غاية في النفاسة، فعليٌّ أبو الحسن هو الفصاحة وهي هو.

وكان ابن الجوزي يعظ الناس فتقع في مجلس وعظه صور غير عادية في حياة الناس.. انخلاع في النفوس، تدفق في الدموع، ذهول في الجمهور، وجول في قلوب الحضور، فذاك يصرخ تائباً، وهذا ينتحب نادماً، وهذا يُغمى عليه، وذاك ينسحق تحت سياط الوعظ.

بعض الخطباء يخطب في الجلوس فيجثون على الركب ويزحفون إليه وتنقطع أبصارهم فيه.

وبعض الخطباء يخطب في الجموع فلا تنبس شفة، ولا تتحرك أنملة، ولا يرمش طرف.

وبعض الخطباء إذا خطب قعقع منبره بهدير صوته، وصار جمهوره في قبضته، وأصبح مستمعوه طوع يمينه. وآخرون إذا خطبوا انسابوا كالماء هدوءاً وسكينة، وهبُّوا كالنسيم لطافة ورقة، يصاحبون الأرواح قبل الأجسام، والأنفس دون الأبدان.

الخطيب القدير هو الذي يملك زمام المبادرة فلا يترك الأرواح تتفلت من قبضته، وهو الذي يركض في ميدان الألفاظ يتخير ما يشاء ويهجر ما يشاء، رابط الجأش قوي القلب واثق النفس ثابت القدم هادىء الأعصاب، ترتجف القلوب من صولته وقلبه في أمان، وتضطرب الأرواح من نبراته وروحه في حرز مكين.

والخطيب القدير كالسيل الزاحف إذا صادفته هضبة طمّها وارتقى عليها، وإذا قابلته حفرة ملأها وعدّى عنها، وإذا واجه صخرة مال عنها ذات اليمين وذات الشمال.

والخطيب القدير يهدأ فتسكن الأسماع وتخفت الأرواح، ويثور يثور فيغلي الجو ويضطرب الشهود.

يستفهم واجماً كالأسد المتأمل، ويتعجب منذهلاً كالشاعر الواله، ويستعطف في العبارة كالفقير اللحوح، ويأمر كالسلطان المطاع، ويرثي في مقام الرثاء فينسى الناس الخنساء، ويعزي فيذهب حَرُّ المصاب مع برد العزاء.

والخطيب القدير يستظهر الآيات البينات فيرصع بتيجانها هامات خطبه، ويرصّع بدررها حلل وعظه.

ويحفظ الحديث الصحيح فيطرز وشي كلامه بجوامع كلمه ﷺ، ويربط على قلبه بأنفاس المعصوم.

عنده الأدب مادته وعصاه وبرده، فالأبيات على طرف لسانه يطرب ويحمس ويتفنن.

وعنده القصص ينثرها بسرد عجيب وطرح غريب، فكأن السامع عاشها والغائب حضرها.

تقرأ الأحدوثة فلا تحركك ولا تعجبك ولا تستهويك، وتسمع الخطيب المصقع يتلوها على الأسماع فتصل شغاف قلبك المدنف فتشعل فيه جذوة من الحرارة والحماس والجاذبية.

الخطيب القدير يصف الليل وهو في الظهيرة فتحس أنك تحت أسمال الدجى وتحت أجنحة الدياجير، ويصف النهر فتلمس ثيابك أن تبتلَّ وأنت ناءٍ عن النهر!

ويصف جيش الأعداء البعيد فتنظر إلى مطالع الجبال كأن الطلائع أقبلت والكتائب دنت.

يدعوك للجائعين باذلاً؛ فترمي الخبزة من يدك طائعاً، ويشاجيك للعراة منجداً؛ فتخلع ثوبك مسعفاً راضياً.

هل الخطابة إلا جذب النفوس، وامتلاك الأرواح، والتصرّف في

المشاعر؟ هل الخطابة إلا الاستيلاء على مستعمرات الأفكار وفتح قلاع التصورات والانتصار على الآراء المخالفة.

والخطابة هي الإقناع ونقل السامع من الغي إلى الرشاد، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الظلم إلى العدل.

يريد الخطيب أن يبكي الناس فيتوجع من قلبه ويتأسف من خَلَده ويتهدّج صوته، وتنساب عبارات الفجيعة وكلمات الثكل من بين شفتيه، وتتساقط الآهات مع الدمعات، والزَّفرات مع العبرات، فإذا الجمع مناحة والكل مأتم.

ويريد الخطيب أن يلهب الحماس ويشجع السَّامع فيهتف بسطوة ويمور بقوة وينفعل بإباء، فإذا الحضور في بسالة وإقدام، وإذا الأعين تترقب حتى هي ساعة التضحية ولحظة الفداء.

الخطابة أن تأتي إلى الغضوب الحقود الممتلىء الثائر الجريح فتعالج قلبه وتداخل نفسه، وتسلَّ سخيمته وتزيل ضراوته حتى تبرد حرارته وينطفىء لهبه ويموت غضبه فيعود حليماً صفوحاً مسامحاً.

والخطابة أن تأتي إلى المعاند الجموح المشاكس فتلين عريكته وتخاطب فطرته وتدغدغ مشاعره؛ حتى يثوب ويسلّم ويذعن.

ليست الخطابة لفظاً بلا معنى، وقالباً بلا قلب، وعبارات بلا عبر؛ فكلها صوت وصورة، ماء وظل، ندى وطل، شبع وري، عواطف ومعانٍ، مُثُل وقيم.

في العالم الغربي يقوم خطيب فيتحدث عن البطالة متذمراً وغاضباً فينساق معه الجماهير متذمرين غاضبين يزحفون معه كالسيل المخيف، إذا أراد تهدئتهم قام فألقى خطبة يبرد فيه المشاعر ويلطف بها العواطف فكأنه صبَّ بحراً من الماء على تلك النار الموقدة.

إن من البيان لسحراً يخلب الألباب، ويلوّن الأمزجة، ويغير الصور والأحداث والأشياء والمواقف.

وإن من الخطابة لسحراً يشجع الجبان، ويردُّ الجامح، ويعزِّي المصاب، ويسخي البخيل، ويقدم الهيَّاب.

وسحر الخطابة في سموِّها.. في عمقها.. في تأثيرها.. في معانيها.. في عواطفها.

وسحر الخطابة في إلقائها وجاذبيتها وحلاوتها وطلاوتها، واللسان الذلق يصنع الأعاجيب وينتج الأحداث ويرسم الوقائع.

قالوا: أرسل «جورج واشنطن» أول رئيس لأمريكا رجلاً واحداً إلى «تكساس»، تلكم الولاية التي تمردت عليه، واستعصت على الفتح، هذا الرجل هو «هيوستن» الذي سمِّيت باسمه المدينة هناك، أرسله وحده بلا جيش وإنما كان معه لسان ذلق فصيح هدّار خلاَّب، فدخل هذه الولاية فقيراً مملقاً وجلس في مكتب محاماة يأتيه المظلوم فيخرجه ظالماً، والظالم مظلوماً، والسارق بريئاً، والبريء سارقاً، فاستحوذ الناس إلا القليل، حتى ضُمّت هذه الولاية به إلى بقية الولايات!

كان الأحنف بن قيس هزيلاً نحيفاً، أحنف ضعيفاً، تحتقره العين وينبو عنه الطرف، فإذا تكلَّم خطف الأضواء، وجلب الأبصار، واستنصت الأسماع، وملك القلوب، وهذه هي البلاغة.

كان بعض الخطباء كالعاصفة الهوجاء إذا اندفع في الحديث يغضب ويثور وينفعل ويمور، ولسان حاله يقول: لا مساس، فتراه يفلق هام البيان بسيف الفصاحة البتار، ويقطع جبال الشكوك بمهنَّد الحجة الصارم، فهو وحده رجل الموقف وأستاذ الحدث وسلطان المقام.

الخطابة هي جرأة صادقة وإقدام فظيع لا يعرف النكوص والالتواء، ومواجهة للجماهير من غير هيبة ولا وجوم ولا خجل.

والخطابة تحضير مسبق لما يُراد أن يُقال، وامتلاء الذهن بأطراف الموضوع، ورصد تام لحديث المقام، حينها يدلف الخطيب وهو واثق من نفسه تمام الثقة، متماسك القوى، قوي الإرادة، لأنه قد أحرز مادته وخمَّر أفكاره واستعد للمواجهة، ولبس للخطابة لأمة النزال.

إن أول فشل الخطيب أن لا يُزَوِّرَ كلاماً في صدره، ولا يهيىء أفكاراً في خاطره، وربما ظن أن وقوفه أمام الناس كفيل بإثراء ذهنه بالمعلومات وملء عقله بالأفكار، وهذا ليس بصحيح، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦].

والخطيب القدير يعيش الخطبة بقلبه وجوانحه وعواطفه، فهو يتكلَّم للناس لكن بعروق دمه وشرايينه وحشاياه، يتحدّث عن الألم وهو أوّل المتألمين يتوجع لما حدث، لا بلسانه بل بجَنانه، فيظهر ذلك في خلجات صورته وقسمات وجهه ونبرات صوته ولفتاته وإشاراته، ويتكلَّم عن البشرى فإذا هو سعيد بما حدث، جذلان بما صار يسعد الناس بما يحمله هو في نفسه وخفاياه.

والخطيب المصقع موسوعة علمية لا يضايقه الحديث عن أي جانب، بل هو كالسيل كلما وجد فراغاً ملأه، وكلما صادف مكاناً منخفضاً أفرغ فيه جموحه، يطالع كثيراً ويحفظ كثيراً ويتدبّر كثيراً، يسبك العبارات فيجعل الخطبة كهيكل الذهب متناسقة متقاربة لا نشاز فيها ولا التواء.

والخطيب يحتاج إلى تدريب سابق ومران كثير، ولا يكفيه أن يطالع صفات الخطيب وأن يقرأ سمات الخطابة، بل يعيشها هو بنفسه مزاولة ودُربة ومراناً كالسباحة تماماً، فإن مجلداً ضخماً في طريقة

السباحة لا ينفع شيئاً ما لم يتوجه الإِنسان إلى النهر ليغمس نفسه فيه ممثلاً ما قرأ وما علم.

إذا أردت أن تدعو الناس إلى بذل المال والجود بالإِنفاق فهل تظن أنك إذا جمعت الآيات والأحاديث في الباب وعرضتها على الناس أنك تحصل على ما تريد؟ كلاَّ، بل تجمع الآيات والأحاديث والعبر والأفكار ثم تصبغها بعواطفك وجاذبيتك وأنفاسك، ثم تروّض نفسك على القول وتضع نفسك في مكان السامعين، وترى هل هذا الكلام مؤثر مقنع؟

إن الكلام على عواهنه ليس خطابة بل حديث عادي، وما كل متحدث خطيب، لأن الخطابة شيء آخر غير الحديث ومطلق الكلام، والأمة تحتاج إلى خطباء جهابذة يملكون المشاعر ويستولون على العواطف، خطباء همُّهم عرض الرسالة الحق عرضاً قوياً مؤثراً واصلاً.. خطباء يشرحون المنهج الرباني بحرارة وجاذبية واندفاع.. خطباء يجلجلون في المجامع العامة بغيرة الحق ونغمة الصدق وكلمة الإِسلام.

وإن قطاعاً هائلاً من الناس لا يقنعه الدرس الهادىء الوديع، ولا يبهجه الحديث المنساب الخافت، وإنما يهزه ويحركه من أعماقه ثراثر خطباء صُقّع، وإيقاعات فصحاء ذُلّق، تصل أصواتهم إلى سويداء القلوب وأعماق الأعماق، وإن الذين يظنون أن دور الخطابة ضحل وأن الصياح والضجيج لا داعي له أخطؤوا خطأً بيِّناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً؛ لأن أخطب الناس هو رسولنا ﷺ الذي أصلح بخطبه أمماً وهدى بوعظه شعوباً.

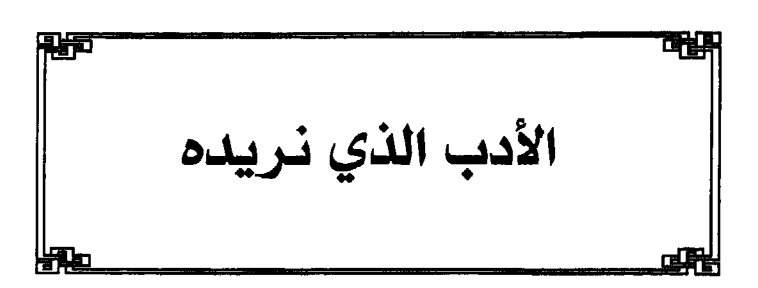
والناس مستويات ودرجات، فهذا يكفيه وضوح الفكرة وصفاء العرض، وذاك لا يفتقت ذرّات الالتواء والصدوف في نفسه إلا لكمات هائلة من الوعظ وهدير متتابع من الخطب ليستجيب لهذا النداء الصّامد ويذعن لهذا الخطاب الجارف الدامغ.

إن الحشود تحتاج إلى خطباء أقوياء مؤهَّلين يؤدون واجب النصح ووظيفة الإقناع، لهم من سرعة البديهة ما ينقذهم من ورطات المفاجأة، ولهم من رصيد التجارب ما يسعفهم في الأحداث، ولهم من روعة الهمم ما يدعوهم إلى معالي الأمور.

والأمة اليوم تحتاج إلى دُور ومعاهد لتعليم الخطباء وتخريج الفصحاء، لتزرعهم في العالم وتوزعهم في المعمورة، يلهجون بذكر الله والدعوة إليه وتحبيب الناس في شرعه، وهذا مطلب سامٍ وهدف نبيل.

ويا ليت أن هناك دوراتٍ للخطباء واجتماعات سنوية لهم ليتدارسوا أوضاعهم ويتلافوا أخطاءهم ويحسّنوا من أحوالهم، والله المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل.





الأدب الذي نريده

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

في هذه الأوراق القادمة سأعيش معكم في ظلال الأدب، وفي أفياء الشعر، وفي مسارح الكلمة الرائعة من تراثنا الخالد.

ومعذرة إن ندّ بيان أو تلعثم حرف.

أيها الإِخوة، نحن نرى الآن على الساحة أدباً لا يحمل مبدأ ولا يتعامل مع قضيتنا الكبرى ولا يتحمس لرسالتنا الخالدة.

أدباً عليه سيما التذبذب وتبدُّل المواقف بحسب المنافع والأغراض.

نعيش أدباً يسترضي الخواطر ويجامل على حساب الحق.. فإذا قائله أول من يكذبه ولا يؤمن به.

نعيش أدباً مزوّقاً مستهلكاً ممجوجاً، مجّته الآذان، وعافته القلوب، وتمرّدت عليه الأجيال، لأنه لا يُلبي طموحها.

أدباً يجعل السارق محترماً، والأمين خائناً، والسفّاك فاتحاً عظيماً، وإمام المسجد متطرفاً مريباً، والمتزلج على الثلج وجامع الطوابع حكيماً عبقرياً.

أدباً سهّل لسذّج البادية تلطيخ صحف الأمة بساقط القول ومبتذل الهُراء.. فأصبح دراويش الأعراب حملة فكر وروّاد قلم.. في حين أفل نجم الطليعة، وغابت شمس الروّاد، وأفلت نجوم أهل الساحة.

إذا عيّر الطائيَّ بالبخل مادرٌ وعيّر قسّاً بالفهاهة باقل
وقال الدجى للشمس أنت كسيفة وقال السُّهى للبدر وجهك حائل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدي إن دهرك هازل

ولا أنكر أن هناك أدباء فضلاء وشعراء نبلاء، حملة حق وروّاد فضيلة وفّقهم الله وأعانهم.

نعم! نعيش أدباً فصل الأمة عن دينها.. فالتطور في نظره ألاّ تذكر المسجد ولا المصحف، ولا تفكر في الكعبة ولا زمزم، ولا تتغنّى ببدر وحطين، ولا خالد ولا سعد ولا صلاح الدين.

نعيش أدباً مهمّته توسيع البطون للمتآكلين من أموال اليتامى والأرامل واللاجئين.

أدباً نتيجته ميدالية ذهبية أو سيارة فاخرة، أو كلمة شكر من الجنرال أو ابتسامة من أمير المؤمنين.

أدباً أخرج أفراخ العلمنة أبرياء أمام الشعب، ونجوماً في وسائل الإعلام، وأبطالاً لمسيرة الركب.

وجعل الأعْلام خونة، والناصحين غششة، والأتقياء أهل خطورة.

نعيش أدباً.. طارد الجنس وطلب الشهرة وحرص على الظهور.

فأين أدبنا؟

وأين شعرنا؟

وأين تراثنا؟

نريد أدباً جميلاً طموحاً عفيفاً.

أدباً يستفيد من السبع المثاني والقرآن العظيم.

أدباً يلهب حماس الأمة فيوقظ الغافل، وينبه البليد، ويحرك الميت بالروائع من الكلمات.

وسوف أورد نماذج - إن شاء الله - للأدب الراقي.. وللأدب الفاشل.. للأدب الحي.. وللأدب الميت.. للأدب الذي يُخاطب الوجدان.. وللأدب الذي يخاطب الآذان.. للأدب الذي يجعل الزهرة تسبيحاً لله الواحد الأحد، ويجعل من الأمة أمة خالدة تصل رسالتها برب العالمين.

أدباً يبكيك وأنت على فراشك، ويصلك بالله عزَّ وجل وأنت على مرقدك.

وأذكر أدباً ينزلك من معالم الإِنسانية إلى درجة البهيمية إن لم تتقِ الله.

أيها الإِخوة.. كلمة الأدب هي الكلمة المؤثرة في الجيل.. والله عزَّ وجل جعل معجزة رسوله ﷺ الكلمة، لم يأت له بعصا كما آتى موسى.. لكن أتى له بكلمة مؤثرة معجزة.

يقول الشاعر يمدح الرسول ﷺ:

شعراء الضلال سُحَّار فرعون   وأنت العصا وأنت الكريم

ويقول الزبيري قاضي اليمن في مدح الرسول ﷺ:

ما بنى جملة من اللفظ إلاَّ   وابتنى اللفظ أمة من عفاء

يقول: ما تكلم بخطبة إلا بنى جيلاً.. ولا ألقى كلمة إلا حرَّك شعباً.

ويقول البردوني ـ ولو أني أعارضه في توجهه[(١)] ـ ولا زال حياً وقد عُمِّر أكثر من السبعين عاماً.. لكنْ كما قال الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

يقول أعمى القلب والبصر! يمدح الرسول ﷺ:

بُشرى من الغيب ألقت في فم الغار وحياً وأفضت إلى الدنيا بأسرار
بُشرى النبوة طافت كالشذى سحراً وأعلنت في الدنا ميلاد أنوار
وشقَّت الصمت والأنسام تحملها تحت السكينة من دار إلى دار

كان رسولنا ﷺ يحب الأدب ويعيش مع الشعر ولو أنه هو في نفسه ليس بشاعر ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، ولكنه كان يحب الشّعر. ففي صحيح مسلم عن عمر بن الشريد. قال: كنت رِدْف رسول الله ﷺ فقال لي: «**أتحفظ شعر أمية بن أبي الصلت؟**».

قلت: نعم.

قال: «**أنشدني**».

فأنشدته بيتاً.

قال: «**هيه**».

فأنشدته ثانياً.

قال: «**هيه**».

فأنشدته ثالثاً.

---

(١) لأنه من كهنة الحداثيين في البلاد العربية (الناشر).

قال: «هيه»، حتى أنشدته مائة بيت[١].

لأنه يرتاح للأدب ﷺ، وهو الذي جاء بالأدب ورسم الكلمة الحية.

● مواصفات الأدب الذي نريده:

الأدب الذي نريده يحمل مواصفات خمس، فإن نقصت من الخمس واحدة نقص بقدرها.

أولاً: أن يحمل الإيمان بالله رب العالمين.

ثانياً: أن يكون جميلاً يستفيد من بلاغة القرآن ورشاقة السنة.

ثالثاً: أن يكون مؤثراً يستحث الهمم ويحرك النفوس ويهتم بمعالي الأمور، فلا يصف لنا البيض والدجاج والصيدليات المناوبة ودرجات الحرارة!!

رابعاً: أن يكون حيّاً يحمل روح الخلود والنَّفس الطموح.. حياً كما قال محمد إقبال في قصيدة اسمها: (بحثت عن الرسول في ألمانيا).

قال: (يا رسول الله! بحثت عنك في بون وشوارعها، وأخذت شمعات أبحث عنك فما وجدتك، وجدت العمارات والسيارات والقاطرات والطائرات والنبات.. لكني ما وجدت من أنزلت عليه الآيات البينات.. بحثت عنك لأرى العدل والسلام والحرية فما وجدتك.. أين أنت يا رسول الله؟)[٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٥٥)، وأحمد برقم (١٨٩٦٣، ١٨٩٧٠)، وابن ماجه برقم (٣٧٥٨).

(٢) هو يعني برسول الله ﷺ ما يدل على شريعته.. أي أنه بحث عن الإيمان والإسلام هناك فما وجده.. ولكن استخدام لفظ (رسول الله ﷺ) موهم وقد يُفَسَّر بغير ما يريد الشاعر.. فتركه أولى (الناشر).

وهذه القصيدة يوم ألقاها بكلماته أبكى بها شعب الباكستان.

خامساً: أن يكون هذا الأدب يدعو إلى الفضيلة وينهى عن الرذيلة.

هذه مجمل عناصر الأدب الذي نريده، وإليكم التفصيل والله المستعان.

أولاً: كيف يحمل الأدب الإيمان بالله رب العالمين، وبالرسول ﷺ، وباليوم الآخر؟

نحن لا نريد أدباً كافراً.. نحن أمة تقوم على عقيدة وتؤمن بمبدأ وتسجد لله عزَّ وجل، أما أن نُخرج شعراء من أبنائنا كفرة وملاحدة فهذه المصيبة والله.

يقول السياب العراقي: (صار الله رماداً.. سوطاً في كف الجلادين)! سبحان الله! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً! ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] أهذا كلام؟

أتحوَّلت الأمة إلى أمة ملحدة لا تؤمن بالله؟

إن الشرط الأول في الأدب أن يكون مؤمناً بالله.

يقول ابن رواحة ـ وقد أوردها البخاري في صحيحه ـ وهو يترنم بين يدي رسول الله ﷺ:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشقَّ معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع[(١)]

ويقول للرسول ﷺ مرةً أخرى وهو يُلقي عليه قصيدة:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٥٥، ٦١٥١)، وأحمد برقم (١٥٣١٠).

فثبّت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فقال ﷺ: «وإياك فثبّت»[1].

لقد كان شعره ينطلق من الإيمان والقرآن، وكانوا يعلمون أن الله سوف يحاسبهم على كل كلمة يوم يلقونه في يوم العرض الأكبر.

لكن أن نأتي بأديب لا يصلّي ولا يصوم، ولا يعترف بالقرآن ولا زمزم والحطيم ولا الكعبة ونقول هذا أديبنا وهذا شاعرنا... إن هذا صدمة لوجه الأمة الإسلامية.

وفد النابغة الجعدي على الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله عندي قصيدة.

قال: «قل».

قال:

تذكرت والذكرى تهيج على الفتى ومن عادة المحزون أن يتذكرا

لقد كان الأدب المؤمن لطيفاً، وكان حيّاً ولا زال حيّاً.. لكننا نحن حوّلناه إلى نشيد ميت.

سمعت شباباً في المخيمات ينشدون:

رأيت الحق منهزماً فليت الحق لم يهزم

ما شاء الله! ما هذه الحرارة؟

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥٢٨/٣)، والطبري في التفسير (٦٩/٣)، والحاكم برقم (٦٠٦٥)، وانظر: مجمع الزوائد (١٢٤/٨)، وسير أعلام النبلاء (٢٣٤/١).

فهذه الأنشودة مثل قول أحدهم:

الـلـيـل لـيـل والـنـهـار نـهـار والأرض فيها الماء والأشجار!!

أو كقول الآخر:

كـأنـنـا والـمـاء مـن حـولـنـا قـوم جـلـوس حـولـهـم مـاء!

فهذا يُسمَّى جبراً ومعادلات حسابية! ولا يسمَّى شعراً أبداً.

يقول النابغة كما سبق:

تذكرت والذكرى تهيج على الفتى ومن عادة المحزون أن يتذكرا
بلغنا السماء مجداً وسؤدداً وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال ﷺ: «إلى أين»؟

قال: إلى الجنة يا رسول الله.

قال: «لا فُضَّ فوك»[1].

أما الأدب الكافر الفاجر فاسمعوا إلى نماذج منه:

١ ـ يقول أبو العلاء المعري في قصيدة ذكرها الذهبي وابن كثير:

قِرانُ المشتري زحلٌ يرجّى لإيقاظ النواظر من كراها
تقضّى الناس جيلاً بعد جيل وخُلّفت النجوم كما تراها
تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع بالخسار من افتراها
فقال رجاله وحيٌ أتاه وقال الآخرون بل افتراها
وما حجّي إلى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذراها

(١) أخرجه الحارث في مسند الحارث (زوائد الهيثمي) برقم (٨٩٤)، أبو محمد الأنصاري في طبقات المحدثين بأصبهان (٢٧٥/١)، وانظر: الإصابة (٣٩٤/٦)، ومجمع الزوائد (١٢٦/٨).

إذا رجع الحكيم إلى حجاه تهاون بالمذاهب وازدراها

ويقول هذا المخذول أيضاً مخاطباً الله سبحانه وتعالى:

أنهيتَ عن قتل النفوس تعمداً وبعثت أنت لقبضها ملكَيْنِ
وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحالين

يقول: لماذا تُحرم يا ربي قتل الناس وتُرسل ملكين لقبض الروح!

ويقول: لماذا تخلق ثم تميت؟

تقدّس الله، ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ٥].

ويقول أيضاً:

عقول تستخف بها سطورٌ ولا يدري الغني لمن الثبور
كتاب محمد وكتاب موسى وإنجيل ابن مريم والزبور

يقول: هذه الكتب كلها سواء فما أعطتنا الحقيقة!

قلت: وصدق الله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وأكتفي بما أوردت من كلامه.. عسى الله عز وجل أن يجازيه بما فعل.. ولا ندري فبعض أهل العلم قال: إنه تاب.

ولكن ابن كثير أثبت أنه مات خسيساً حقيراً.. ولما وضعوه في قبره ثارت عليه حيّة سوداء رآها الناس وهم يدفنونه بمعرة النعمان.

٢ ـ وقال آخر منهم يمدح خليفة سلف:

أنت الذي يُنزل الأيام منزلها وينقض الدهر من حال إلى حال

ومــا مــددت بــأقــلام مــرتــلــة   إلا قــضــيــت بــأرزاق وآجــال!

فماذا كانت عقوبة هذا المسرف؟.. اسمعوا:

أتى إلى الأمير أبي دلف فمدحه وهو أمير في عهد المأمون فقال فيه:

كـل مـن فـي الأرض مـن عـرب   مـا بـيـن بـاديـه ومـحـتـضـره
مـسـتـعـيـر مـنـك مـكـرمـة   يـكـتـسـيـهـا يـوم مـفـتـخـره

فغضب المأمون لأنه جعله ضمن البشر فاستدعاه ونزع لسانه من قفاه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فُصِّلَت: ١٦].

٣ ـ وقال الأندلسي يمدح سلطاناً من السلاطين:

مـا شـئـتَ لا مـا شـاءت الأقـدار   فـاحـكـم فـأنـت الـواحـد الـقـهـار

فأخبره من هو الواحد القهار، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، وأخزاه في قصة طويلة.

٤ ـ وشاعر آخر يعترض على القضاء والقدر ويقول:

أيـا ربِّ تـخـلـق أغـصـان رنـدٍ   وألـحـاظ حـورٍ وكـثـبـان رمـلِ
وتـنـهـى عـبـادك أن يـعـشـقـوا   أيا خالق العدل ذا حكم عدلِ؟

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسرَاء: ٤٣]، يقول: يا رب تجمِّل الأغصان وتجمل الفتيات ثم تقول لا تعشقوا؟

٥ ـ ويقول مجنون ليلى وقد سأله بعض الفضلاء أن يتوب من حبِّها:

أتـوب إلـيـك يـا رحـمـن مـمّـا   جنت نفسي فقد كثرت ذنوبُ
وأمـا مـن هـوى لـيـلـى وتـركـي   زيـارتـهـا فـإنّـي لا أتـوب!

أستغفر الله!

ثانياً: من مواصفات الأدب الذي نريده أن يكون جميلاً تُشرق عليه ديباجة القرآن وبلاغة السنّة ويصل إلى القلوب.

هل سمعتم أبلغ من القرآن؟ قرأتُ أن فاتحاً من الزعماء العباسيين فتح مدينة في الشمال وراء نهر سيحون، فلما اجتمع الناس قال: أريد أعظم كلمة أعبّر بها عن هذا الفتح.

فقال له أحد العلماء: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القَمَر: ١]، ومَن ينسج مثل هذه الكلمة إلا رب العالمين؟!

لكن كما يقول سيد قطب ـ عفا الله عنه ـ: تبلّدت أحاسيسنا بكلام الناس الممجوج، فما أصبحنا نحس طعم القرآن وحلاوة القرآن وإشراق القرآن.. وإلاَّ فهل سمعتم أبلغ من ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ [القَمَر: ١-٣].

واسمع إلى سورة يوسف عندما يقول سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يُوسُف: ٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

أية بلاغة هذه، وأي إشراق هذا؟

• نماذج من الأدب الجميل:

ولذلك فالشعراء الإسلاميون الذين اكتسبوا خلوداً أثّر عليهم القرآن.

١ ـ ففي ترجمة إقبال الشاعر الكبير قالوا عنه: كان في الصباح يمسك القرآن إلى طلوع الشمس ويبكي... وصل إلى كابول عاصمة أفغانستان في عهد ظاهر شاه فسلّمه نسخة من القرآن وبكى وقال:

أرجوك يا ظاهر شاه إن كنت تريد أن تُنقذ نفسك والشعب الأفغاني أن تأخذ هذه الوثيقة تعمل بها في الحياة.

ولذلك اسمع ماذا يقول:

أرى التفكير أدركه خمول ... ولم تبق العزائم في اشتعالِ
وأصبح وعظكم من غير نور ... ولا سحر يطلٌّ من المقالِ
وعند الناس فلسفة وفكر ... ولكن أين تلقين الغزالي
وجلجلة الأذان بكل حيٍّ ... ولكن أين صوت من بلال
منائركم علت في كل ساحٍ ... ومسجدكم من العباد خالِ

ويقول عن المؤمنين:

وكأن أصوات المدافع في صدو ... رِ المؤمنين الروح والريحانا

ويقول عن أبناء العرب لما أتى الجزيرة العربية:

وأصبح عابدو الأصنام قدماً ... حماة البيت والركن اليماني

٢ ـ ومن الأدب الجميل ما قاله الحسن بن هاني في علي بن موسى الرضا من أحفاد علي بن أبي طالب، فقد قال له علي: مدحت الوزراء وتركتني.

فقال معتذراً:

قيل لي أنت واحد من النا ... س في كل معنى من الكلام بديه
لك في جوهر الكلام بديع ... يثمر الدر في يدي مجتنيه
فعلام تركت مدح ابن موسى ... ذا الخصال التي تجمعنَ فيه
قلت كيف أهتدي لمدح إمام ... كان جبريل صاحباً لأبيه[1]

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٨٨/٩)، والسيرة النبوية (١١٢/٤)، وعندهم أن القائل كعب بن مالك.

هل سمعتم أبدع من هذا الشعر؟

يقول: أنا أمدح الناس العاديين.. لكن أنت لا أستطيع مدحك لأن جبريل كان مع جدك ﷺ.

وقد غلط في البيت الأخير فقال:

قلت كيف أهتدي لمدح إمام   كان جبريل خادماً لأبيه

يقول الذهبي: بل صاحباً لأبيه.

ونحن نقول: بل صاحباً لأبيه، فجبريل أشرف من أن يُطلق عليه خادم.. بل كما قال الله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

٣ ـ ابن بقية: وزير من وزراء العباسيين كان يُطعم الفقراء ويكسو العراة ويعطي المساكين.

قال للعلماء: من يدرّس منكم في المسجد فكفالته ونفقته عليّ.. رحمه الله. فأصبح له صيت في دولة عضد الدولة حتى طغى اسمه على اسم السلطان، فغضب عضد الدولة منه فدبّر له مكيدة حتى قتله وصلبه.

فوقف أبو الحسن الأنباري يبكي عند الجثمان وقال قصيدة قال فيها عضد الدولة القاتل الفاتك: والذي نفسي بيده لوددت أنني المصلوب وأنها قيلت فيّ.

يقول وهو واقف أمام الجثمان:

علوٌّ في الحياة وفي الممات   بحقٌّ أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا   وفود نداك أيام الصلات
كأنك واقف فيهم خطيباً   وهم وقفوا قياماً للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء   كمدّهما إليهم بالهبات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يواروا فيه تلك المكرمات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عليك اليوم صوت النائحات

وهي قصيدة طويلة فيما يقارب الخمسين بيتاً.

إذن نريد شعراً حيّاً جميلاً، ولا يلزم من الفقيه أن يكون أديباً، فأنا أعرف ابن القيم وأحبه وهو أعظم من ألفٍ من أمثال المتنبي، لكنه ليس بشاعر مثل المتنبي.. فالمتنبي شاعر مؤثر وتخصصه الشعر، ولا يعني ذلك أنه أفضل من ابن القيم ولكن ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ٦٠].

المتنبي يقول في الحمّى مثلاً:

وزائرتي كأن بها حياءً ... فليس تزور إلاّ في الظلام
بذلتُ لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي
أبنت الدهر عندي كل بنت ... فكيف نجوت أنت من الزحام

أما ابن القيم فإنه إذا قال شعراً غلبت عليه المتون، ودخلت عليه النصوص الفقهية، لأن فكره مليء بالقرآن والسنة.

يقول مثلاً:

قال ابن عباس ويرسل ربنا ... ريحاً تهز ذوائب الأغصان
إسناده حسن ومصداق له ... في الترمذي فافهمه بالبرهان

فأدخل الترمذي، وأدخل الإسناد الحسن، وأدخل ابن عباس في القصيدة!

إذاً فالرجل ليس من طراز ذاك لأن ذاك عاش للشعر فقط، وهذا عاش لرسالة العلم.

يقول ابن خلدون في المقدمة: ولما أتى العلماء ليقولوا شعراً غلبت عليهم المتون، فانظر إلى ابن دقيق العيد في قوله:

واختلف الأصحاب في وجدنا   فرجّحوا نجواك وهو الصحيح!

فهذه مقطوعة من زاد المستنقذ!!

المقصود من هذا الكلام أن يكون لنا أدبٌ جميلٌ يستمد طاقته من القرآن الكريم، ومن السنة، ومن أصالة الأمة.

وأواصل تقديم بعض المقطوعات الجميلة لكم.. وهي كثيرة جداً:

٤ ـ السعد الشيرازي شاعر سني من شمال إيران، يقولون: كان يقرأ القرآن ليلاً ونهاراً، فهو واعظ وزاهد وناسك وشاعر.

قال:

بكت عيني غداة البين دمعاً   وأخرى بالبكا بخلت علينا
فعاقبتُ التي بالدمع ضنَّت   بأن أغمضتها يوم التقينا
وجازيت التي بالدمع جادت   بأن أسعدتها بالوصل حَيْنا

وقال في مقطوعة أخرى جميلة:

قال لي المحبوب لما زرته   من ببابي؟ قلت بالباب أنا
قال لي أخطأتَ تعريف الهوى   حينما فرّقت فيه بيننا
ومضى عام فلما جئته   أطرق الباب عليه موهنا
قال لي من أنت قلت انظر فما   ثَمّ إلا أنت بالباب هنا
قال لي أحسنت تعريف الهوى   وعرفت الحب فادخل يا أنا!

ولا يعني هذا أن كل أدبنا القديم هو من روائع المقطوعات.. لا.. بل وجد في ذاك الزمان ما يعارض الأدب الجميل وهو الأدب الركيك.

فاسمع لبعضه:

دخل شاعر على المأمون (وليس بشاعر) فقال للمأمون:

فـد كـان آدم قـبـل حـيـن وفـاتـه   أوصـى إلـيـك بـتـركـة الأبـنـاء!

فهو يمدح المأمون بالكرم ويقول: يا مأمون يا أمير المؤمنين، آدم يوم تُوفّي أوصى لك بأبنائه أن تجود عليهم، فهو يريد دراهم!

ولكن شعره ركيك جداً فقد تابع بين الظروف.

قـد كـان آدم قـبـل حـيـن وفـاتـه   أوصـى إلـيـك بـتـركـة الأبـنـاء

فقال المأمون: أعطوه مائة درهم واجلدوه خمسين جلدة!! أما المائة فلأنه فقير، وأما الخمسين فلأنه أساء الأدب مع الشعر.

فجلدوه خمسين وأعطوه مائة درهم.. بعون الله ورعايته!

وقال الزمخشري صاحب الكشاف في أبيات ركيكة:

ألا ما طلبنا الحسن من أعين البقر   شكرنا وإن الله يرحم من شكر

والمتنبي صاحب الروائع وقع فيما فرّ منه وهو الركاكة، وذلك عندما قال:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا   قـلاقـل عـيـسٍ كـلـهـن قـلاقـل

وصفيّ الدين يقول لحاكم العراق:

يا بَليّ البال قد بلبلت بالبلبال بالي   بالنوى زلزلتني والعقل بالزلزال زالا

هو شاعر كبير، ولكنه أراد أن يعقّد من حضر، فقام إليه السلطان وصفعه على وجهه!!

هشام بن عبدالملك كان أحولَ.. فدخل عليه أبو النجم الراجز وقد نسي أن الخليفة أحول فقال:

والـشـمـس فـي الأفـق كـعـيـن الأحـول!

فقال هشام: اسحبوا ابن الفاعلة وأخرِجُوه.. فسحبوه على ظهره وأخرجوه خارج القصر!!

ودخل جرير على عبدالملك فقال:

أتصحو أم فؤادك غير صاحِ

قال: بل فؤادك أنت غير صاحِ!

الثالث: من مواصفات الأدب المؤثر أن يستحث الهمم ويحرك النفوس، فيجعل البخيل كريماً، ويجعل الجبان شجاعاً، ويجعل البليد يقوم وسط الليل ليذاكر.

● ابن الأطنابة فرّ من معركة في الجاهلية ثم تراجع وقال:

أبَتْ لي عفَّتي وأبى حيائي وأخذي المال بالثمن الربيح
وإكراهي على المعروف نفسي وضربي هامة البطل الصحيح
وقَولي كلما جشأتْ وجاشت مكانك تُحمدي أو تستريحي

وعاد فقاتل بسبب هذه الأبيات.

ومعاوية ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ قد استَشْهَدَ بهذه الأبيات في معركة صفين.

● المحلّق بخيل من بخلاء العرب الذين يُضرب بهم المثل في البخل، كان عنده ثمان بنات لم يتزوجن لأن أباهن بخيل.. والعرب تغفر كل الذنب إلا البخل.

فقالت امرأته: أتدري لماذا ترك الناس بناتنا؟

قال: لا أدري.

قالت: لأنك بخيل!

قال: فما الحل؟

قالت: الحل أن تدعو الأعشى شاعر العرب فتُضيّفه يوماً وتكسوه كسوة وتعطيه مالاً.. فإذا مدحك سارت مديحتك في العرب فتزوّجوا بناتك.

قال: أصبتِ أصاب الله بك الخير.

فذهب ودعا الأعشى ونحر له ناقة وألبسه بُردة وأعطاه دراهم.

فلما ركب الأعشى راحلته قال:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تبيت لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّق

فذهبت القصيدة في العرب.. فما مرّ شهر إلا وتزوجت بناته.

● يقول معن بن أوس في بني مطر:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في بطن خفان أشبل
هُمُ يمنعون الجار حتى كأنه لجارهم بين السماكين منزل
بهاليل في الإِسلام سادوا ولم يكن لأولهم في الجاهلية أول

فسمعها رجل من قريش فقال: يا ليتني من بني مطر.

لماذا؟

لأنه أحيا ذكرهم.. وجعل لهم علامات يُعرفون بها.

● قال أبو جعفر المنصور لجلاّسه وسمّاره من الأدباء والعلماء: ما هي أحسن قصيدة قيلت؟

قالوا: ما ندري.

قال: قول المقنع الكندي:

يعيرني في الدَّين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حمدا
أسدّ به ما قد أضاعوا وضيّعوا حقوق أناس ما استطاعوا لها سدّا
وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هتكوا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحِقدا

وإنّي لعبد الضيف ما دام نازلاً وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

هذا هو الشعر الخالد الذي يُرَبّي الجيل تربية سليمة، فكله مواعظ وحكم بالغة.. لا يلبث مستمعه إلا أن يعمل بها.

وفرق بين هذا وبين من يقول:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهرُ!

أو كقول شوقي ـ عفا الله عنه ـ عندما قال بعد رمضان:

رمضانُ ولّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعىٰ إلى مشتاق

فمثل هذا الأدب لا يصحّ أن يعيش في الأمة.. ولا أن يكون في رفوفها.. ولا أن تقرأه الأجيال.. ولا أن يقرّر في المدارس.

وكذلك قول زهير المشهور:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

والغريب أننا نستشهد به كثيراً، فإن مثل هذا البيت يدعو إلى الاعتداء وظلم الآخرين.

أو كقول المتنبي:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روّى رمحه غير ظالم

يقول: لو عرفتم الناس كما أعرف لرويتم رماحكم منهم.

كيف هذا والله يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ويقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

رابعاً: من مواصفات الأدب: أن يكون حيّاً.. يُحيي روح الخلود والطموح عند الأمة ويكون خالداً يجري في الأجيال، فلا يكون كشعر

هذه الأيام الذي أكثره في المناسبات: افتتاح معهد أو كلية أو نحوها.. فيأتي الشاعر وقد سطّر خمسين بيتاً في ذلك.

وقد ينشرها في الصحف على عدة أعمدة.. لأني قد شاهدت عدداً من الصحف وإذا بشعر المناسبات يملؤها.

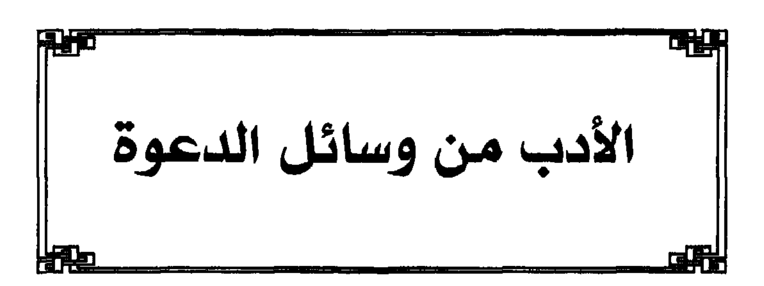
ولو رُمت أن تحفظ بيتاً منها ما استطعت! لأنها ركيكة ساذجة لا تبقى مع الأجيال.

والحل! أن نحيي تراثنا الأدبي الراقي من جديد، ونحاكيه في حاضرنا ليبقى لنا أدبنا وشعرنا بقاء أنفسنا.

فمن أدب الخلود ما ذكره أبو تمام في مدح حُميد الطوسي، وهو بطل مسلم مات على (لا إله إلا الله)، وقد قاتل من صلاة الصبح إلى صلاة المغرب، فقُتل قبل الغروب وقد تكسّرت في يده تسعة أسياف.

كان عمره ما يقارب ستة وثلاثين سنة فقاد جيش المعتصم ضد الروم، فلمّا تكسرت أسيافه قُتل، فرثاه أبو تمام بقصيدة يقول فيها المعتصم: والله ما مات من قيلت فيه هذه القصيدة.





الأدب من وسائل الدعوة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

نحن أمة علم، وأمة أدب، نحتسب في بيت الشعر ما نحتسبه في الكلمة، ونحتسب في بيت الشعر ما نحتسبه في التسبيحة التي يسبِّحها العابد في المسجد، لأن الله أرسلنا رسل هداية كما يقول ربعي بن عامر يوم أن دخل على رستم فهز إيوانه، فقال له رستم: ماذا جاء بكم؟

قال: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإِسلام.

فرسول الله ﷺ يوم أتى إلينا نحن أمة العرب لم يكن لدينا أي مجد أو ثقافة أو معرفة.

ماذا كان مجدنا؟

ماذا كان تاريخنا؟

ما هي ثقافتنا؟

ما هي معرفتنا؟

لا شيء!!

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢]، فأخرج من الذين يطاردون الجعلان، ويسجدون للصنم، أعلاماً للبشرية، ورموزاً للهداية والنور.

وأسجدهم الله على رمال الصحراء، ونفى كل ذرة من ذرات الشرك من جسومهم، فانطلقوا يهلّلون ويكبّرون.

فأخذوا سيف الله تحت لا إله إلا الله، وساروا على أمواج بحر الله يعلنون لا إله إلا الله في المعمورة، فمات أكثر الصحابة في نهاوند، وعلى أسوار القسطنطينية في شمال الشام.

قال عمر: من قُتل في نهاوند؟

قيل: قتل فلان وفلان، وأناس لا نعرفهم.

فدمعت عينا عمر وقال: لكن الله يعرفهم.

فهم قد قتلوا من أجله وبسببه، ليرفعوا راية لا إله إلا الله، يعرفهم يوم يجمع الأولين والآخرين.

ولذلك يقول الشيخ الكبير أبو أيوب الأنصاري الذي استضاف النبي ﷺ يوم أن جاء إلى المدينة.

يقول أبو أيوب للصحابة وقد نيّف على المائة سنة: خذوني فوالله لأقاتلنّ معكم الروم.

قالوا: كيف نأخذك وقد عفا الله عنك وعَذَرَك!

قال: لا، إني سمعت الله يقول: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وأنا ثقيل، فوالله لأنفرنّ.

فلما وصل إلى أبواب القسطنطينية قال: اللهم لا تُعدني من هنا حتى أُقتل وأُدفن في هذا المكان، حتى تبعثني يوم القيامة بين قوم كفار أقول بينهم: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك)، فلبّى له الله ما سأل لأنه كان صادقاً.

فلما انتهت المعركة دفن عند أبواب القسطنطينية، فهو مدفون هناك وأرضه في طَيْبة الطيِّبة.

لكن دفن هناك لتشهد الإنسانية أننا حملة رسالة.

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسمك فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالاً في الجبال وربما صرنا على موج البحار بحارا

وهذه أبيات لشاعر الباكستان محمد إقبال الذي حج يوماً فتلمح في واقع الناس، فإذا أناس لا يعيشون لله إلا من رحمه الله، فالوجوه كأنها أتت من باريس وروما.

والقلوب كأنها مستوردة، فقال قصيدة محرقة مبكية على حال الأمة منها تلك الأبيات السابقة.

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسمك فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالاً في الجبال وربما صرنا على موج البحار بحارا

أما سار خالد بن الوليد على موج النهر؟

أما ركب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وقال للخيل يوم القادسية: (يا خيل الله اركبي)، فسمعت صوته فاقتحمت النهر، فجمّد الله لهم النهر؟

أما عبر طارق بن زياد المحيط لنصرة لا إله إلا الله؟

أما وقف عقبة بن نافع وهو في أرض أفريقية يتكلم في الغابات

ويقول: يا أيتها الغابات أخرجي وحوشك وثعابينك فإن معي أصحاب رسول الله ﷺ؟

يقول محمد إقبال:

بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا

دخلنا قبرص بلا جيش وبلا كتائب، بل أذَّن المؤذن من المسلمين فاهتزت كل قلاع قبرص، ثم أعلنوا الاستسلام ورفعوا أيديهم لأنهم سمعوا الأذان.

لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارا

كم سجدنا في أفريقيا؟ وكم سجد أجدادنا في ربوعها؟

أرواحنا يا رب فوق أكفِّنا نرجو ثوابك مغنماً وجوارا
كنا نرى الأصنام من ذهب فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لحازها كنزاً وصاغ الحلي والدينارا

أتى محمود بن سبكتكين أحد سلاطين الإسلام الذي كان يملك كثيراً من المشرق.

وسجادته ومصحفه ـ كما يقول الذهبي ـ بشماله، وسواكه دائماً بيمينه وعنده من الجيوش ما الله به عليم.

فلما عبر نهر السند أتى إلى بعض ملوك الهند فإذا صنم هناك، فقال له الملك: خذ هذا الصنم ـ وكان من ذهب ـ رشوة واتركنا في بلادنا.

فقال: والله لا آخذه، ولا آخذ مالاً، ولا آخذ كنزاً؛ لأنه عُبد من دون الله. فقتل الملك وجعله فوق الصنم.

فلذلك قال إقبال:

كنا نرى الأصنام من ذهب فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لحازها كنزاً وصاغ الحلي والدينارا

والغريب يا إخوة، بعد هذا، أن يقول أعداؤنا بأنه ليس عندنا أدب.

والأدب كل الأدب في تراثنا وفي تاريخنا.

أمّا هم فماذا قدّموا للبشرية من أدبهم، ومن فنهم، ومن قبحهم، ومن حقارتهم؟

قدّموا المرأة الخليعة، وقدّموا كأس الخمر، وقدّموا المجلة المفسدة والأغنية الماجنة والملهى والمرقص.

قدّموا الضلال، وقدّموا الصدَّ عن الله عزَّ وجل وهدم دين الله في أرض الله.

أما نحن فقدّمنا لا إله إلا الله، ورفعنا لا إله إلا الله، وعلّمنا الناس أن يقولوا لا إله إلا الله.

فتعالوا لنرى كيف عاش ﷺ بالأدب. وكيف كان يعيش مع النوادي الأدبية التي يجب أن تؤدي للأمة رسالتها الحقيقية، وتؤدي كلمة الحق، وتنفع شباب الإسلام وتردُّهم إلى الله عز وجل.

أعرفتم مسجده ﷺ في المدينة؟

لقد بُني بناء متواضعاً من طين ولم يتكلّف فيه، لكنه كان منارة من منارات الأرض تتلقى نور السماء.

كان إمامه محمد ﷺ، تلتقي به القلوب كل يوم خمس مرات، وفكِّر في ذهنك أنت أن الرسول سيصلي بك خمس مرات يومياً تسمع صوته وقراءته، ثم يسلّم فتصافحه وتجلس معه.

أي شعور لك؟ وأية نعمة فوق هذه النعمة؟

كان ﷺ يستمع إلى ما جمل وطاب من الكلمات ومن الخطب ومن المواعظ، فهو أفصح من نطق بالضاد، وأفصح من استخدم العبارة وأجاد الكلام.

يرتقي ﷺ المنبر يوم الجمعة فلا يحضّر لكلمة ولا يُعد لخطبة، لأنه أمّي لا يقرأ ولا يكتب، يقول عزَّ وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العَنكبوت: ٤٨].

فما درس وما كتب وما تعلَّم.

فبُعث بعد أربعين سنة فإذا هو أفصح خطيب، وإذا هو أكبر مفتٍ، وإذا هو أشجع قائد، وإذا هو أجلّ مربٍّ في المعمورة.

يخطب يوم الجمعة فلا يتلعثم بحرف.. فما تسمع ممن في المسجد إلا البكاء والنحيب تأثراً بكلماته المتدفقة كالسيل، أو كالبركان الثائر.

يقول شوقي:

وإذا خطبت فللمنابر هزة   تعرو النديَّ وللقلوب بكاء

يقول أنس: والله إني كنت ألتفت يوم الجمعة فإذا الناس لهم خنين في المسجد، وكلٌّ قد وضع رأسه على ركبتيه.

لأنه ﷺ يصل بالقلوب إلى الله عز وجل.

والرسول ﷺ كان يستمع الشعر والأدب.

يقول الأسود بن سريع: وفدت على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إني حمدت ربي بمحامد (أي في الشعر).

فقال ﷺ: **«أما إن ربك يحب المدح»**[(١)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/١٢٠)، والطبري في تاريخه (٢/١٥١)، وانظر: مجمع الزوائد (٥/١٦٠).

ثم أنشده ما تيسَّر.

ولذلك كان ﷺ يريد أن يوجه طاقات الأمة إلى الله، فنحن في الإسلام لا نطرد الشاعر من حياتنا لأنه شاعر؛ بل نقبله ونوجِّه طاقاته كما كان يفعل ﷺ.

لأن بإمكانه أن ينصر الإسلام بالشعر، وبإمكانه أن يحيي العقيدة في قلوب الناس ويردهم إلى خالقهم ويزهدهم في الدنيا.

يقول ابن كثير: لما توفي أبو نواس الشاعر وكان من شعراء الدولة العباسية وكان فاسقاً في شعره وفي حياته، وعلمه عند الله، لا نشهد لأحد بجنة أو نار إلا لمن شهد له ﷺ، لكننا نرجو للمحسن الثواب ونخاف على المسيء العقاب.

المهم أنه لما توفي رؤي في المنام، فقيل: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي وأدخلني الجنة.

قالوا: بماذا؟

قال: لقصيدتي في الورد المسماة بالنرجسية.

يقول فيها:

تفكر في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليكُ
عيون من لُجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيكُ
على كُثُب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريكُ

فأدخله الله بهذه المقطوعة الجنة.

ثم يقول ابن كثير في ترجمة جرير الشاعر: رؤي في المنام، فقالوا: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي.

قالوا: بماذا؟

قال: أذّنت وحدي في البادية، ولا يراني أحد إلا الله، فغفر لي بذاك الأذان.

هل أعظم من مسلم يسافر وحده في سفر في الصحراء لا يراه إلا الله ولا يطّلع عليه إلا الله، فينزل من سيارته أو من مركوبه ثم يؤذّن في الصحراء؟

ويرفع كلمة التوحيد في الصحراء؟ حيث لا يسمعه إلا الشجر أو الحجر أو المدر، فيشهدون له يوم القيامة.

إذن الشاعر بإمكانه أن يدخل الجنة بشعره؛ لو سخّره لخدمة هذا الدين.

وأنت إذا كنت خطيباً أو شاعراً فاتق الله في خطابتك وشعرك واخدم به هذا الدين.

وهكذا إن كنت رساماً فاتق الله واخدم به دينك، وارسم ما تقرب به الأذهان بلا روح ولا مضاهاة لخلق الله، ولكن قرّب الطبيعة إلى الناس وعلّمهم قدرة الله.

وبيّن لهم كيف خلق الله الزهر، وكيف أبدع لونها، وكيف أرسل شذاها، وكيف جمّل بهاها، وكيف سوّى أوراقها لتنال المحبة من الله عز وجل والرضا.

إن من أراد دخول الجنة فعليه أن يصدق مع الله ثم يفتح له باباً، فإن الأبواب عدد الأنفس.

أيها الإخوة الكرام، لقد كان ﷺ يُعلم الصحابة أن يقولوا الشعر والأدب، حتى كانوا يرتجزون بين يديه بالرجز الجميل الخفيف، ولم يكونوا كمثلنا نحن الآن على الكراسي ننشد القصائد العصماء ونقول

القصائد التي نكسر بها رؤوس اليهود، ولكننا في الواقع ما كسرنا رأس أحد.

أما هم فإن عبدالله بن رواحة يقول وهو يحمل الراية في مؤتة وقد كسر غِمد سيفه على ركبته وقال: والله لا أعود إلى الدنيا، ثم أنشد:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّ أو لتكرهنهْ
إن أقسم الناس وشدوا الرنّهْ
ما لي أراك تكرهين الجنَّهْ
هل أنتِ إلا نطفة في شنَّهْ[1]

فنزل وهو صائم وقاتل إلى أن استشهد.

وقبله يقول جعفر بن أبي طالب:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها[2]

إي والله، أما الدنيا فليست بطيبة، وإنما هي النكد والتنغيص.

لقد كان الصحابة يرتجزون كثيراً ويثيرون في أنفسهم الشجاعة والفداء والبطولات عبر أبيات جميلة سهلة عملية.

وكان ﷺ يُقر ذلك كله.

ومن ذلك أنه لما قدم وفد بني تميم ليسلموا اختاروا أشعرهم وأخطبهم وسيدهم وشجاعهم وأحلمهم وكريمهم، وجاؤوا إليه ﷺ في المدينة وأهدوه حلة من الديباج فلبسها أمامهم ﷺ تقديراً لهم.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١١٨/١)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (١٨٢٥٤)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٢١٠/١).

(٢) أخرجه الطبري في التاريخ (١٨٨/٢ ـ ١٩٠)، وانظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣٥٠/١)، والسيرة النبوية (٢٥٥/٥).

ثم طلبوا مفاخرته عبر خطيبهم وشاعرهم.

فجمع ﷺ الناس في المسجد ليريهم سهولة الدين ويريهم سماحة الدين، فاجتمعوا جميعاً.

فقام خطيبهم يتكلَّم ويمدح بني تميم بين يدي رسول الله ﷺ، فلما انتهوا قال ﷺ لثابت بن قيس بن شماس خطيب الصحابة: «قم»، ودعا له بالتأييد وأن يثبت الله جَنانه.

فقام على المنبر وافتتح بخطبة ما سمع الناس بمثلها كأنها صواعق، حتى أنزل عرقهم ورشحهم على جبينهم، فأعلنوا الاستسلام بين يدي رسول الله ﷺ.

ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال يمدح بني تميم:

نحنُ الملوك فلا حيٌّ يغالبنا من الملوك وفينا تنصب البيع

وذكر حوالي خمسين بيتاً في مدح بني تميم، وسكت رسول الله ﷺ والصحابة.

فقال ﷺ لحسان: «قم»، ودعا له بالتأييد والتثبيت.

فقام فأسكتهم بستين بيتاً جميلة يقول في مطلعها:

إن الذوائب من فِهر وإخوتهم قد بينوا سنّة للناس تُتّبع

فسلَّموا وقالوا: غلب خطيبك خطيبنا، وشاعرك شاعرنا، فمُدَّ يدك نبايعك، فدخلوا في دين الله[1].

فالرسول ﷺ كان عنده من الاستعداد والدعوة أنه كان يوظف المؤهلين والمتخصِّصين في وظائفهم، فيجعل ثابتاً خطيباً؛ لأنه مؤهل

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢١٣، ٤١٢٤، ٦١٥٣)، ومسلم برقم (٢٤٨٦)، وأحمد برقم (١٨٠٥٥، ١٨١٦٨).

لذلك بما آتاه الله من ذرابة لسان وفصاحة بيان، ويجعل حسان شاعراً فحلاً يذود عن عرضه وعن دينه؛ لما آتاه الله من جميل عبارة وسرعة رد وبديهة. وهكذا غيرهم، فكلٌ في مكانه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠] وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، فمن كان واديه العلم فليطلب العلم في طاعة الله.

ومن كان واديه العبادة فليخلص عبادته لله.

ومن كان صاحب مهنة أو تجارة فليجعلها في خدمة الإسلام.

ومن كان عنده أدب وفن وخطابة فليخدم بفنه وبأدبه دعوته.

ومن كان جندياً فليحمل راية الله.

إذن فقد كان ﷺ يعطي الأدب شيئاً من وقته الثمين ويعين من يقوم به حق القيام ويوجهه.

فواجب علينا أن نستقرىء سيرته وحياته في كل مجال يهمنا الآن، سواء الأدب أو غيره، لأننا واجدون بلا شك الحل لكل مشاكلنا وأمراضنا وتساؤلاتنا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

فالأدب سار معه كثيراً في حياته ﷺ، فكان يستمع له ويقرُّه أمامه.

ولكن بشروط إيمانية وهي:

١ ـ أن يكون أدباً صادقاً يدعو إلى الخير.

٢ ـ أن لا يكون فيه فُحش أو غيبة لمسلم أو دعوة إلى أنواع الشر، كما وقع فيه من جاء بعد عصره من الشعراء، حيث انتشرت في أشعارهم الدعوة السافرة إلى الخمر وإلى مجالسها، وصُرِّح بالأمور المنكرة التي يستحيي الإنسان من ذكرها.

٣ ـ أن لا يستغرق الأدب أو الشعر وقت الإنسان وينسيه الأمور المهمة في حياته، وينسيه القرآن والسنة والعلم النافع.

فأنت لو تأملت في واقع الصحابة رضوان الله عليهم، ستجدهم منصرفين بجهدهم وطاقاتهم إلى خدمة هذا الدين وإعلاء كلمته، وإلى التزود من الطاعات والعبادات.

وإنما تأتي أمور الأدب عرضاً في حياتهم، فهي مثل الأسباب المعينة على أمور الدين، لا أنها تستغرق أوقاتهم كما يفعل بعض الأدباء في زماننا حيث يصبح الإنسان منهم ويمسي ويفطر وينام على الأدب والشعر.

فلا ذكر ولا قرآن ولا عبادة، وإنما هو أدب تلو أدب.

لا . . هذا لم يكن من منهجه ولم يكن ليقره ﷺ.

أما شعراؤه ﷺ فلا تتوهم أنهم قد استغرق الأدب والشعر حياتهم؛ بل هم سدّوا الثغرة، ولكن لم ينسوا نصيبهم من العبادة والتقوى ونحوها.

وارجع إلى تراجمهم لتعلم ذلك.

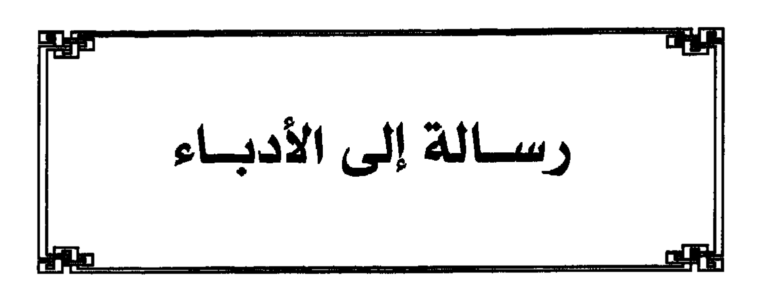
الخلاصة:

أنه ﷺ استثمر الأدب ووجّهه لخدمة الدعوة وأقرّه بشروطه السابقة.

فرحم الله عبداً آتاه الله نعمة الأدب فالتزمها فأفاد واستفاد.

والله أعلم، وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.





رسالة إلى الأدباء

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

معاشر الأدباء! أيها الشعراء أيها الخطباء، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، سلام الله عليكم أزكى من العبير وأطهر من الماء النمير، سلامٌ متوَّجٌ بالحب.

إن يختلفْ ماء الغَمام فماؤنا عذبٌ تحدَّر من غمام واحد
أو يفترق نسبٌ يؤلف بيننا دين أقمناه مقام الوالد

يا أهل الكلمة الطيبة، يا أهل الكلمة الحارة، يا أصحاب التأثير، يا روَّاد القلم، يا حملة الفكر.. رسالة مدادها الحب، وعربونها الوفاء، وتاجها الإخلاص والصدق مع الله عز وجل، رسالة إليكم أيها الأدباء ومَن يسير في مضماركم من أهل هذه الصفة الجميلة.

ما هو الأدب؟ الأدب: كلمة مؤثرة حية تصل إلى القلوب، وتحرر الشعوب، وتبني الهمم في القلوب، وتصحِّح المسار، وتستنهض العزائم.

الأدب: كلمة تُغيِّر مفاهيم الناس من الخطأ إلى الصواب، ومن الضلال إلى الرشد، ومن الكفر إلى الإيمان، والله عز وجل يقول عن كلمة الأدب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

وكان رائد الأدب: رسولنا ﷺ، فهو الذي ملك زمام الكلمة وأحيا الشعوب باللفظ، وحوَّل مسار الأمة بالألفاظ التي أرسلها ﷺ في الناس.

يقول عنه الزبيري:

ما بنىٰ جملة من اللفظ إلا وابتنى اللّفظ أمةً من عفاءِ

أمة ميتة في الصحراء، أحياها بإذن الله رسول الله ﷺ بالمقولة، بالخطبة، بالقصة، بالتأثير.

يقول شوقي في الرسول ﷺ:

وإذا خطبتَ فللمنابر هزةٌ تعرو الندى وللقلوب بكاء

والعجيب أنه ﷺ لم يكن شاعراً، ولكنه ملك كل ما يمكن أن يؤثر به الشعر: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

لماذا؟ لأنه لو كان شاعراً لاحتجَّ المنافقون والمشركون والملاحدة على أنه نظم القرآن من شعره، أو صنَّف الوحي من أبياته.

ومع ذلك اتهموه وهو بريء من الشعر ﷺ.

ولكن الرسول ﷺ عاش مع الشعراء وحيّ الكلمة الحية ورحّب بالأسلوب، وجلس مع الأدباء ﷺ، فقد قرّب المنبر لشاعره حسان

رضي الله عنه وقال له: «**اهجهم وروح القدس معك**»[(١)]، وقال عمرو بن الشريد كما في صحيح مسلم: ردفت رسول الله ﷺ على الراحلة فقال لي: «**أتحفظ لأمية بن أبي الصلت شعراً؟**»، قلت: نعم، فقال: «**هيه**»، فزدته ثانياً، فقال: «**هيه**»، فزدته ثالثاً، فقال: «**هيه**»، فما زلت أنشده حتى أنشدته مائة قافية[(٢)]، هكذا يهش ﷺ للشعر.

ويقول كما في الصحيح: «**إن من البيان لسحراً**»[(٣)]، ويقول: «**وإن من الشعر لحكمة**»[(٤)]، أو كما قال ﷺ.

ولا بد أن يعي الأديب المسلم أن عليه رسالة، الله عزَّ وجل يسأله يوم القيامة، يوم ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزُّمَر: ٦١]، يجيء الصالحين بكلمتهم الصادقة المؤمنة الملتزمة، ويخيِّب الله سبحانه وتعالى ضمائر الفاشلين بكلمتهم الملحدة الكافرة الآثمة.

إذن كان لزاماً على الأديب أن يكون حياً بأدبه، راسخاً في أمته بشعره، خالداً بإيحاءاته، مؤمناً بالله ربه، محتسباً بكلمته وجمله، لأن الكلمة سوف تبقى يوم يكتب الله سبحانه وتعالى ما قدَّم الإنسان ويكتب أثره.

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفُرقان: ٢٣]، فعمل المنافقين والمعرضين والزنادقة والملحدين منثور لا يأبه به الله، بخلاف عمل المصلحين.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٥١٥٨، ١٥١٦٣)، وانظر: مجمع الزوائد (١١٨/٨).
(٢) سبق تخريجه ص(٣١).
(٣) سبق تخريجه ص(١١).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٦١٤٥)، وأحمد برقم (٢٠٦٥١)، وأبو داود برقم (٥٠١٠)، وابن ماجه برقم (٣٧٥٥)، وغيرهم.

وهنا قضيتان أيها الأدباء الفضلاء، أناقشهما معكم:

١ - الأدب الفاشل الهزيل.

٢ - والأدب النبيل الجميل.

أ - **الأدب الفاشل الهزيل:** فهو ذاكم الأدب الرخيص الذي يدغدغ اللذة في حرام، ويناشد القلب في هُيام، ويصعد إلى الروح في ظلام.

ذاكم الأدب الذي يبيع الضمير، ويستهوي القلب في الغواية، ويرشّح للمعصية. ذاكم الأدب الذي يغرس الإلحاد في النفس، ويربي حب الشيطان في القلب، ويستوحي إلهامات الشيطان برواد الخبائث في الأرض.

ومن أصنافه:

١ - أدب العشق والهُيام: وهو الذي يربي على الأغنية الماجنة ويحبب الفاحشة ويبني الرذيلة، الأدب الذي يقول صاحبه:

أتوب إليك يا رحمان مما جنت نفسي فقد كثرت ذنوبُ
وأما من هوى ليلى وتركي زيارتها فإني لا أتوبُ!

ويقول آخر:

فوالله ما أدري وإن كنت دارياً بسبع رميت الجمر أم بثمانيا
تراني إذا صليتُ يمّمت نحوها بوجهي وإن كان المصلّى ورائيا

وهذا هو الانحراف عن منهج الله عزَّ وجل، والتلاعب بمبادئه في الأرض، تبارك الله رب العالمين.

٢ - ومن صور هذا الأدب الفاحش: أدب الزندقة والإلحاد، والشرك والوثنية، والاعتداء على المنهج الرباني.

كما يقول أبو العلاء المعري يعترض على شريعة الله في قطع يد السارق:

يد بخمس مئين عسجد وُديت ... ما بالها قُطِعَت في رُبع دينار
تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له ... ونستعيذ بمولانا من النار

فيهاجمه شعراء السنة وشعراء الإسلام ويوبِّخونه.

فيقول عبدالوهاب المالكي رداً عليه:

قل للمعرِّي عارٌ أيما عار ... جهلُ الفتى وهو عن ثوب التقى عارِ
لا تنتقص بنود الشرع عن شبه ... عقائد الدين لا تُقْدح بأشعار

وذاك زنديق آخر يتوقف في خلق الله للإنسان. ولماذا خلق؟؟ وإلى أين يسير؟

فيقول:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيتُ
ولقد أبصرت قُدَّامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أو أبيتُ
لست أدري لست أدري

صدق الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

ويقول آخر لأحد السلاطين:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ ... فاحكم فأنتَ الواحدُ القهَّارُ!

والله عز وجل هو الواحد القهار، ولكنه النفاقُ بالكلمة وبيعُ الجملة والرخصُ في سوق الرخص.

٣ ـ ومن صنوف الأدب الفاشل: التكلف في المديح، والنفاق به

حتى يوصل الإنسان الضعيف الحقير إلى منزلة الإله العظيم القدير.

يقول أحدهم وقد زُلزلت مصر في عهد أحد المعتدين الماردين الماكرين. زلزلت ربما من الظلم والطغيان، وربما حاول هذا السلطان لتأثُّره بهذا الزلزال أن يعود إلى الله وأن يراجع حسابه مع الأحد القيوم، فأتاه هذا الشاعر المنافق فقال:

ما زلزلت مصرُ من كيدٍ ألمّ بها لكنّها رقصت من عدلكم طرباً!

هكذا؟!

وصور الأدب الفاشل كثيرة في المجتمعات، ولا يزال جنباً إلى جنب مع الأدب الفاضل الجميل، لأن من سنن الله سبحانه وتعالى في الكون أن يكون هناك صراعٌ بين الإيمان والكفر، وبين الظلام والنور، وبين الهدى والضلال.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ب ـ **وهناك أدب جميل** نحبه وندعوكم إليه أيها الفضلاء من الأدباء، وأيها الكرام من الشعراء، ندعوكم إلى هذا الأدب الذي يتوِّجكم بتاج الوقار في دار الكرامة، ويرفعكم درجاتٍ عند الحي القيوم، لِتكونوا ممن يحبهم الله عزَّ وجل ورسوله والمؤمنون.

وهذا الأدب من مواصفاته:

أولاً: الإيمان بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً. الإيمان الذي يصلك برضوان الله عزَّ وجل، ويجعلك حياً بالكلمة منشداً بالبيت.

يقول محمد إقبال شاعر الإيمان والحب والطموح:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا

هذا الشاعر الذي خاطب النور في الإنسان، والإيمان في المسلم، وناشد التاريخ، ووقف على لسان الدهر، وخاطب أذن الزمن، ووقف على شفة الليل والنهار. هذا الشاعر الذي ابتهل إلى الله يناشده عهده وميثاقه لهذه الأمة أن يرد لها سيرتها وكرامتها ومجدها وسؤددها فيقول:

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسمك فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالاً في الجبال وربما صرنا على موج البحار بحارا
لن تنس أفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارا
أرواحنا يا رب فوق أكُفِّنا نرجو ثوابك مغنماً وجوارا
كنا نرى الأصنام من ذهب فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لحازها كنزاً وصاغ الحلي والدينارا

هكذا يطلقها إقبال وهو يناشد في الأمة إسلامها وقرآنها وإيمانها.

فيحيا إقبال شاعراً وقد مات جسمه، ويحيا إقبال في الأمة منشداً وقد فني رسمه، ويحيا إقبال في الأمة أملاً وطموحاً وقد انتهى من الحياة ولم ينتهِ من القلوب والمُقَل.

ويقول في قصيدة له أخرى:

نحن الذين استيقظت بأذانهم دنيا الخليقة من تهاويل الكَرَى

أي: كانت الأمة ضائعة وميتة حتى بعث الله لها ألسنة الحق بأقلام الحق حتى أحيتها بإذن الله عزَّ وجل:

حتى هوت صور المعابد سُجّداً لجلال من خلق الوجود وصوَّرا

الخرافات، الكيانات الظالمة، الطغيان، الإلحاد، العمالة والجهالة

والزندقة، هوت وسُحِقت تحت جزمات المصلين من أئمة الدين، من أتباع محمد ﷺ.

من الذي باع الحياة رخيصة ... ورأى رضاك أعز شيء فاشترى

مَن الذين باعوا أرواحهم لله يوم باع غيرهم أرواحهم للشيطان والدجل والعمالة وللفساد وللحرية في الأرض؟! إلى أن يقول:

ومَن الذين دكوا بعزم أكفهم ... باب المدينة يوم غزوة خيبرا
أمَّن رمى نار المجوس فأطفئت ... وأبان وجه الصبح أبيض نيّرا

أيها الأدباء، إن من أعظم صفات الأدب أنه يحمل الإيمان، يحمل الخوف من الله، يحمل خشيته سبحانه وتعالى.

لك أن تتكلم مع الزهرة وأن تناجي الروض وأن تسبِّح بحمد الله عزَّ وجل في الحديقة، وأن تتكلَّم مع الوردة، لكن بعقيدة لا إله إلا الله.

لك أن تناجي الليل إذا أقبل، وأن تتحدَّث مع الصباح إذا أتاك، وأن تستلهم رشدك من الله عزَّ وجل، في إرسال النجم ضوءه، وفي إرسال الشمس شعاعها، لكن لتحمل عقيدة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

يقول أبو نواس في قصيدة له اسمها النرجسية، يتكلَّم فيها للزهر لكنه يرسل لك محاضرة في العقيدة:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لُجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على كُثُب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

فسبحان من أبدع، وسبحان من صوَّر، وسبحان من ألهم بعض الناس أن يقولوا كلمة الحق ولو شعراً.

وهناك أحد الشعراء أرسل قطعة من التوحيد لتسمعها الآذان، وتحفظها القلوب، وليسجلها الله له في ديوان الحق، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَراء: ٨٨، ٨٩]. . . ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرّعد: ١٧].

يقول:

قل للطبيب تخطَّفته يد الرَّدى ... من يا طبيب بطبِّه أرداك
قل للمريض نجا وعوفي بعدما ... عجزت فنون الطب: من عافاك
والنحل قل للنحل يا طير البوادي ... مَن ذا الذي بالشَّهد قد حلاّك
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه ... فاسأله من ذا بالسموم حشاك
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو ... تحيا وهذا السم يملأ فاك
فالحمد لله الكريم لذاته ... حمداً وليس لواحدٍ إلاّك

من صفات الأدب الإسلامي الجميل النبيل، أنه يحمل معالي الأمور، ويدل على كرم النفس، ويدعو إلى فضائل الخلق، كالكرم والشجاعة والنبل والحياء والحلم، يثيرها في الأمة ويدعو إليها ويحييها ويشيد بها ويبنيها.

يقول أمية بن أبي الصلت يمدح آل جدعان بالكرم:

لا ينكتون الأرض عند سؤالهم ... لتَطلّب الحاجات بالعيدان
بل يشرقون وجوههم فترى لها ... عند السؤال كأحسن الألوان

وما أحسن الشجاعة في المؤمن إذا قدَّم روحه في سبيل الله رخيصة، وما أحسن الإقدام ليرتفع منهج الله، يقول المتنبي يصف سيف الدولة في المعركة وفي الميدان:

وقفتَ وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الرَّدى وهو نائم
تمرُّ بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضَّاح وثغرك باسم

أما رأيت الخلود؟! أما رأيت الإبداع؟! هل رأيت أحسن منه تصويراً؟!

ومن صفات الأدب أنه مؤثر، يصل إلى النفس، ويخاطب الروح فيجري في الدم، فليس أدباً بارداً. وهذا الأدب البارد طالما منيت به الأمة، وطالما ضيّع عليها مسيرتها ووقتها، وطالما كان خطأ في طريقها وعثرة في مسيرتها.

وممّن استطاع أن يؤثر بأدبه وشعره.. أبو تمام. فاسمع إليه يرثي محمد بن حميد الطوسي في قصيدة طويلة يقول في آخرها:

وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
ثوى طاهر الأردان لم تبق بقعة ... غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
عليك سلام الله وقفاً فإنني ... رأيت الكريم الحرَّ ليس له عمر

ويسمعها المعتصم فيقول: والله ما مات من قيلت فيه هذه الأبيات.

إذن هذا هو الأدب المؤثر المعبر، هذا هو الأدب الحي، هذه هي القطع المجيدة التي ينبغي على شباب الأمة وروادها أن يحفظوها وأن يبدعوا في إلقائها وأن يكرروها في مجالسهم.

ومن صفات الأدب الذي نريد: أنه أدب يخلد مسيرة الأمة وتاريخ الكرم في الأجيال، ويخلد الأسر والبيوت.

زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان فيقول في أبيات جميلة:

قومٌ أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يُقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بآبائهم أو مجدهم قعدوا
محسَّدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ما لهم حسدوا

يقول عمر رضي الله عنه لأبناء هرم بن سنان بعدما توفي زهير

وتوفي هرم: ماذا قال فيكم زهير؟ قال أحد أبناء هرم: أعطانا وأعطيناه.

فقال عمر: ذهب والله ما أعطيتموه، وبقي والله ما أعطاكم.

فهو الخلود الذي يستمر مع الأمة جيلاً فجيلاً، وقرناً فقرناً، وروحاً فروحاً.

فهذا هو الأدب الفاشل وهذا هو الأدب الفاضل، وهذه هي المسيرة المتردية المنكوسة للحقراء الأذلة الذين روَّجوا بكلماتهم الزيف والضلال في الأرض، وهذا هو الأدب الفاضل الجميل المؤمن الذي بنى المكارم في الأمة، وشيّد الخلود للجيل، وأعلى منار الحق للتوحيد.

● أمراض الأدباء:

وللأدباء أمراض، أمراض إذا كثرت أفسدت، لأن الأديب مسموع الكلمة، محترم الرأي، يُسمع فكره، وتناشد كلمته، وينصت لمقولته.

من أمراضهم: الشهرة، والرياء، والسمعة، وحب المظاهر على حساب الدين وتقوى الله والخشية.

١ ـ فالشهرة مرض فتّاك أوصل المتنبي إلى أن قُتل. ذاكم المتنبي الذي أوتي شعراً جميلاً جميلاً، وأدباً رائعاً رائعاً، وكلمة حية، ولكنه صرفها في غير الطريق السليم، فهو يقول مثلاً:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صممُ
أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جَرّاها ويختصمُ

فليته تمم ذلك بأن جعلها في منارة الحق وفي تقوية التوحيد وفي نصرة (لا إله إلا الله)، ولكن يمدح ملكاً هذا اليوم ويذمُّه في اليوم الثاني، يريد شهرة ومنزلة ومكانة، فأذهبته المنزلة وقتلته الشهرة وأعدمه الرياء.

ثوب الرياء يشفُّ عما تحته   فإذا التحفت به كأنك عار

والله عزَّ وجل ذكر هذه المناهج، المناهج الحقة والمناهج الباطلة فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].

٢ ـ ومن أمراض الأدباء: الاستخدام أو سمُّها العمالة، أو سمُّها الذلة، أو سمُّها الجبن، أو سمُّها خيانة المنهج الرباني.

الاستحذاء للكيانات، الاستحذاء للواجهات، الاستحذاء للجهات، بيع النفس، بيع القلم، الارتزاق، وهم يسمُّون في قاموس الحياة مرتزقة الأدب ومرتزقة الفكر ومرتزقة القلم، يأكلون بأقلامهم ويشربون بقصائدهم وينامون بجملهم، وهذا إذا وجد في الأديب فقد انتهت قيمته واحترق بنيانه وانتهت إرادته، وأصبح ممسوخاً في كيان الأمة.

٣ ـ ومن أمراض الأدباء: الضياع بلا منهجية وبلا إرادة، الضياع لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

فمرة مع الصالحين ومرة مع الطالحين، مرة يبني في صرح (لا إله إلا الله)، ومرة يهدم في صرحها، وهذا يظهر أنه من أسلوب الأدباء المنتفعين والشعراء المرتزقة الضالين الضائعين.

● سمات الأدب الذي نريد:

نريد أدباً إسلامياً رائداً رائعاً جميلاً، أدباً لا يستخذي الأشخاص، أدباً لا يريد بسمةً من أمير المؤمنين، ولا عطفاً من الجنرال، ولا وصفاً

وقتياً لحادثة فيكون أدباً للمناسبات، لا نريد أدباً تكثر به الكلمات الطنانة وهي نفاق، وتحلية الجمل البديعة وهي رياء، وترصّعه الكلمات الحارة وهي سمعة، أدباً لا نريده إذا كان يضيع منهج الأمة ويلغي مسيراتها ويهدم بنيانها.

لا نريد أدباً يخرج من البطن، ولكن يخرج من القلب، ولا نريد أدباً يستقر في القدر ولكنه يستقر مع صاحبه في القبر، وإلى الصراط وإلى جنة عرضها السموات والأرض.

ولا نريد أدباً متكلّفاً ممجوجاً، لا يعيش حرارة النفس ولا يجري في وريد القلب، ولا ينسكب مع الدم ذرة ذرة، نريد أدباً يستقى نبعه من القرآن الكريم والسنة المطهرة، من الكعبة ومن زمزم، من الحطيم، من الحجر الأسود، أدباً عليه شارات أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

رفيق صلاح الدين هل لك عودة ... فإن جيوش الروم تنهى وتأمر
رفاقك في الأغوار شدوا سروجهم ... وجيشك في حطين صلُّوا وكبَّروا
تغني بك الدنيا كأنك طارق ... على بركات الله يرسو ويبحرُ
تناديك من شوق مآذن مكة ... وتبكيك بدر يا حبيبي وخيبر
ويبكيك صفصاف الشآم وورد ها ... ويبكيك نخل الغوطتين وتدمر

هذا هو الأدب الذي نريده.

أيها الأديب المسلم تعال معي أستعرض أنا وإياك نماذج الأدب الملتزم، الأدب الرائع الجميل، من شعراء مسلمين مخلصين:

١ ـ **التهامي**: هو أحد الشعراء، دفن ابنه ورثاه بمرثية هي من أمهات المراثي.

يقول في آخر القصيدة:

جاورت أعدائي وجاور ربه ... شتان بين جواره وجواري

والمعنى: أنا جاورت الحساد في الحياة، أنا بقيت للأعداء في هذه الدنيا، أما هو فذهب إلى جوار الواحد الأحد، يقول ابن كثير: رؤي التهامي بعدما مات قالوا: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بقولي:

جاورت أعدائي وجاور ربه　　شتان بين جواره وجواري

السر في البيت أنه إيمان، العلة في البيت أن فيه توحيداً واتصالاً بالباري تبارك وتعالى.

٢ ـ **واسمع حسان** يشيد بالهجوم المسلح على جيش المشركين في بدر، ويحيي بطولة الرسول ﷺ وأصحابه ويقول:

وبيوم بدر إذ يصدُّ وجوههم　　جبريل تحت لوائنا ومحمد

يقول الأصمعي: هذا من أكبر أبيات العرب في الفخر، وما أعلم فخراً مثل هذا البيت، فخر عجيب، ما دام محمد ﷺ تحت الراية وجبريل، فأي قيادات في الدنيا تعادل هذه القيادة العليا؟ إنها قيادة الحق والسلام والعدل، إنها قيادة النور واليقين والوفاء، إنها قيادة البذل والتضحية والوفاء.

٣ ـ ويأتي **ابن رواحة** إلى الرسول ﷺ فيحييه ويقول في بيت:

فثبت الله ما آتاك من حسن　　تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فيقول ﷺ: «**وإياك فثبّت**»[1]. ابن رواحة هذا مؤمن، ابن رواحة شهيد ومجاهد، قُتِل في مؤتة، قتل وهو يرتجز ويقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه أو لتكرهنهْ　　إن أقسم الناس وشدوا الرّنهْ
ما لي أراكِ تكرهين الجنّهْ　　هل أنت إلا نطفة في شنَّهْ

٤ ـ وما أحسن الشعر في المعارك، وما أحسنه في سكرات

(١) سبق تخريجه ص(٣٣).

الموت في سبيل الله، وما أحسنه والأبيات تتضرج بالدماء. فتعال معي إلى **خبيب بن عدي**، أحد أصحاب رسول الله ﷺ الذين سجلوا مواقف البطولة عبر التاريخ، صلبه المشركون فقال وهو على الخشبة:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أشلاء شِلو ممزَّع

بارك الله فيك وفي أشلائك.

٥ ـ أوما سمعت أيها الأديب؛ أما استمعت أيها الشاعر إلى تلكم الأبيات الجميلة التي أتت من خراسان من الغزو وفي سبيل الله، من جبهة التوحيد التي أرسلها المحدث الشاعر الزاهد العابد ابن المبارك يخاطب بها الفضيل بن عياض فيقول:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعبُ
من كان يخضب خدَّه بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يُتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهَج السنابك والغبار الأطيب

فما أحسن الإيمان إذا دخل في الشعر، وإذا حلَّ الأدب، وإذا صار مع الكلمة.

ولكنْ تعال معي الآن إلى نموذج آخر.. إلى الذين ما وجَّهوا أدبهم ولا صحَّحوا مسيرة كلمتهم، ولا عرفوا مصداقيتهم وهويتهم.

١ ـ **امرؤ القيس**: شاعر شهير ولكنه قائد الشعراء في النار، فهو أبداً في هُيام وهجر وعشق وخمر وضياع.

يقول في مطلع قصيدته الشهيرة:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوا بين الدخول فحَومل

لماذا تبكي؟ ومن أبكاك؟ وما هو المقصود من بكائك؟ وما هي النتيجة لهذا البكاء؟ والهيام والقصيدة والنشيد؟!

ويقول في قصيدة أخرى، وهي جميلة في منظور الشعر والأدب لا بمنظور المعاني والمقاصد.

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأدرك أنـا لاحـقـان بـقـيـصـرا
فقلت له: لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وهو المُلك الذي طلبه فقتله! وهو الهدف الذي أراده فأعدمه! وهكذا انتهى وانتهى شعره وأدبه.

٢ ـ **جرير**: شاعر مسلم ولكنه يحتاج إلى تربية، والذي يظهر لي والله أعلم أنه كان في تلك الفترة نقص عند المسلمين في مدرسة الأدب التي لم تؤصل من الكتاب والسنة.

فجرير كان يذكر الله كثيراً كما يُذكر في ترجمته، ولكن انتهى شعره إلى الهجاء وإلى المدح والاستجداء والغزل فحسب.

فهو صاحب:

إن العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا
يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراك به ... وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

٣ ـ **المتنبي**: له أبيات جميلة ويسمى شاعر العربية، ولكني عجزت أن أجد في ديوانه بيتاً يشيد فيه بالإيمان أو بالرسالة إلا في كلمات موجزة كقوله:

نبكي على الدنيا وما من معشر ... جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا

قصائد المتنبي ذهبت سدى، فهي جميلة في الإبداع، جميلة في النظم، جميلة في الأسلوب، لكن ما هي الأمور العظيمة التي أحياها في الأمة؟ وما هي المسائل الكبرى التي حام حولها؟

أهي قوله في الحُمّى:

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام
إذا ما فارقتني غسلتني كأنّا بائتين على حرام!!

أم في قصيدته في عضد الدولة:

إذا اشتبكت دموع في خدود تبيّن من بكى ممن تباكى!!

فإلى أين؟ وماذا يريد؟ وما هي النهاية؟... لا شيء.

٤ ـ **شوقي**: أمير الشعراء وشعره جميل، ولكن ما هو المسار الذي ساره، وهل بنى فكره على الدين، وهل تقيّد بمعالم التوحيد؟! أما قال في مخاطبته للخمر:

رمضان ولّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق!!

فأين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]؟ وأين المسجد؟ وأين لا إله إلا الله؟! إن بيتاً بهذه الكلمات إنما يصدر عن رجل ما وضح له المسار.

● صفات الأديب المسلم:

أيها الأديب المسلم، هذه صفات الأديب المسلم الذي يريد الله والدار الآخرة بأدبه، بكلمته، بشعره، بنظمه، بقصته.

أولاً: **الإخلاص** وصدق اللجوء إليه سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. والدين كل ما يمكن أن يوجه إلى الله سبحانه وتعالى، النظم والنثر والحياة والممات، والليل والنهار، الدنيا والآخرة. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ثانياً: على الأديب أن يكون **مُطلعاً**، خاصة على كتاب الله عزَّ وجل، وما صحّ عنه ﷺ من أحاديث، أتريد الأدب؟ أتريد

الجمال؟ أتريد الروعة؟ إنه في كتاب الواحد الأحد، في الوحي الذي أنزله الله على نبيه ومصطفاه ﷺ.

وإن أديباً لا يطالع كتاب الله عزَّ وجل بكثرة ويتأمل عجائبه، ويعيش في رياضه، ويتمشى في حدائقه، ويسير في بساتينه، لهو أديب ناقص لا زال في فقر من الروعة وفي اضمحلال من الإبداع.

ثم عليك بالاطلاع على أدب الناس، وما كتبه المبدعون، وما صوَّره المرشحون للكلمة الحارة من الشعراء الكبار، من القصاصين ومن المؤلفين.

ثالثاً: من صفات الأديب: **الجودة**، أن يعتني بالجودة على حساب الكم، فإن الطيب قليل:

سامحاً بالقليل من غير عذل ربما أغنى القليل وأرضى

وكلما طاب الشيء قل:

قليل منه يكفيني ولكنْ قليلك لا يقال له قليل

نريد في السنة قصيدة، لكنها حيةٌ، ولا نريد في السنة ألف قصيدة لكنها ميتة.

وقد ذكروا عن زهير بن أبي سلمى أنه كان صاحب حوليات، والمتنبي ليس له إلاّ ما يقارب ٦٠٠٠ بيت وهو شاعر العربية بلا منازع.

رابعاً: **العاطفة**، أن يكون الأديب صاحب عاطفة، يحمل وجداناً في قلبه، يحمل حماسة وحرارة، يخاطب الناس من سويداء قلبه لا من شفتيه، ويتكلَّم للناس من روحه لا من لسانه، ويخاطب الجماهير من داخله لا من خارجه.

والعاطفة إذا انطفأت في الأدب تحول إلى كلام بارد، وتحول

إلى غثاء من الجمل، وتحول إلى ركام من العبارات ومات في مهده، ولذلك انظر ما تبثه وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية من صحف ومن تلفاز ومن مذياع من كثرة القصائد وكثرة القصص وكثرة المقالات والخطب، وقليل منها يحيا وآلاف آلاف منها تموت ولا يذكرها حتى قائلها!

خامساً: من صفات الأديب المسلم: **التأمل**، أن يكون متدبراً لأسرار الله في الكون متطلعاً إلى آيات القدرة في خلق السموات والأرض، يتأمل الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس.

وكتاب الفضاء أقرأ فيه صوراً ما قرأتها في كتابي

سادساً: ونطالب الأديب ألا يكثر، فإن الكثرة عرضة للتقصير، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق، وأن يبقى حتى تريده الأنفس وتشتاق إليه الأسماع وتسأل عنه العيون، فيأتي في وقته.

قال ابن مسعود في الصحيح: «كان ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة كراهية السآمة علينا»[1]، فلا نريد من الأديب أن يكون مهذاراً، متكلماً في كل ناد، خطيباً في كل مجلس، يعيد ويكرر، ويرشق الأسماع صباح مساء. لا. لكنه يأتي على شوق.

سابعاً: **إلهاب الوجدان**، فالأمم بأدبائها، ولا تتحرك الجيوش، وتحطم الأسوار ولا تفتح المعاقل إلا بعقائد تحملها، إما صالحة وإما فاسدة، ولا يلهب هذه العقائد ويحركها في النفوس إلا الشعراء.

ولكل أمة شعراء، وعجبٌ أن أدباء لروسيا ألهبوا حماس البلاشفة الحمر حتى قدموا جماجمهم تحت الدبابات في أفغانستان. وأن شعراءَ لإسرائيل، ألهبوا الحماس في وجدان أبناء القردة والخنازير فباعوا

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٨، ٧٠، ٦٤١١)، ومسلم برقم (٢٨٢١)، وغيرهما.

ضمائرهم ومزقوا أجسامهم تحت المجنزرات في سيناء.

فأين شعراء محمد ﷺ؟ وأين أدباء (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؟ وأين خطباء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتِحَة: ٥]؟

ثامناً: أن يعايش الأديب الأمة، فلا يكلم الأمة من برج عاجي، وألا ينعزل عنها بل يعيش آلامها وآمالها، دموعها، بسمتها، ليلها، نهارها، يخاطب حاجة الفقير ويرفعها للناس، يشيد بالمكرمة في الكريم، يصف الشجاعة في الشجاع، يحيي البطولات في الأبطال، يثني على العلم في العلماء، يُحيِّي حسن القيادة في الزعماء بدون رياء وبدون مجاملة.

إن الأديب الذي يعيش لنفسه وأوراقه ومكتبته وغرفته لا يمكن أن يكون أديباً للأمة، بل هو أديب لنفسه يموت بموت قلمه، وبموت روحه التي بين جنبيه.

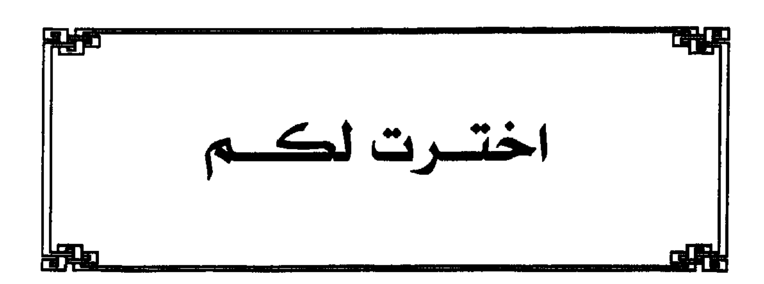
أيها الأديب المسلم! إن هذه الرسالة أمانة، وإنها هدية أقلدك إياها، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨،٨٩].

وأطالبك أيها الأديب أن تحفظ موهبة الله التي عندك فسوف يسألك عنها يوم يبعثَر ما في القبور، ويحصَّل ما في الصدور، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعَام: ٦٢].

شكر الله لك أيها الأديب وزادك توفيقاً وهداية ورشداً، وبصَّرك بما ينفع أمتك، وعلَّمك من لدنه، وهدانا وإياك سواء السبيل.

سبحان ربك ربِّ العزة عما يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وصلَّى الله على محمد، وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.



اختـــرت لكـــم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

ذكر الله الشعراء في القرآن فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤-٢٢٦].

لما أنزل الله عزَّ وجل هذه الآيات أتى حسان بن ثابت وابن رواحة وأمثالهم من الصحابة الشعراء يبكون عند الرسول ﷺ فقال: «ما لكم»؟

قالوا: يا رسول الله ربنا يقول: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤] ونحن شعراء.

فأنزل الله عزَّ وجل قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾(١) [الشُّعَرَاء: ٢٢٧].

والسبب في هذا الدرس ثلاثة أمور:

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٩/١٢٩ ـ ١٣٠)، وابن أبي شيبة برقم (٢٦٠٥١)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٥٥)، وعون المعبود (١٣/٢٤٤).

الأمر الأول: أنه ينبغي للواعظ والخطيب وطالب العلم أن تكون عنده أبيات يتمثل بها، لأن الشعر فيه جمال وفيه ارتياح وفيه حكمة، وقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**إن من البيان لسحراً**»[١]، وأنه قال: «**وإن من الشعر لحكمة**»[٢].

الأمر الثاني: الترويح عن النفوس، فإن الدروس إذا بقيت كلها جدية وكلها صارمة ملَّت النفوس، فلا بد من التنويع خوف الملل والسأم.

الأمر الثالث: حتى يكون هذا الدرس سهلاً لمن أراد أن يحفظ بعض الأبيات.

وقد كان ﷺ يستشهد أحياناً بالأبيات برغم أنه ليس بشاعر، فالله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

ولماذا؟

لأنه لو كان ينظم الشعر لقالت قريش بأنه قد نظم القرآن.

وهم قد قالوا عن القرآن: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، فكيف لو كان ينظم الشعر؟

ولذلك كان إذا استشهد بالأبيات أحياناً يكسرها ولا يأتي بها مستقيمة ﷺ وهو أفصح الناس.

قسم مرة غنائم بين شيوخ العرب فأعطى عيينة بن حصن مائة ناقة وهو سيد غطفان، وأعطى الأقرع بن حابس سيد بني تميم مائة ناقة، وأعطى عباس بن مرداس خمسين ناقة لعدم كفاية الموجود.

---

(١) سبق تخريجه ص(١١).

(٢) سبق تخريجه ص(٦١).

فوجد عباس في نفسه فقال أبياتاً:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع[١]

يقول: لماذا تعطيني أقل منهم وأبوهم ما كان يفوق أبي في المجامع العامة.

فتبسَّم ﷺ وأخذ يردد الأبيات ويقول:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة

والبيت: (بين عيينة والأقرع) حتى يستقيم.

فتبسم أبو بكر وكان رجلاً أديباً فصيحاً وقال: صدق الله ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾[٢] [يس: ٦٩].

برغم أنه يحفظ القرآن ويعلِّم الأمة الفضائل والآداب.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجُمُعَة: ٢].

فما كان يعرف يكتب: محمد بن عبدالله، وبرغم ذلك جاء بكل هذه الحكمة وهذه الشريعة وهذا الدستور وهذا الحديث كله، ﷺ.

يقول حسان في قصيدته البديعة قبل غزوة الفتح، جمّل الله حياته وقد فعل وبيّض الله وجهه:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تُثير النقع موعدها كداء

وكداء هذا جبل في مكة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٦٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل، انظر: تلخيص الجديد (١٢٩/٣)، السيرة النبوية (١٧١/٥).

يقول: اللهم لا تجعل خيلنا تعود علينا إذا ما نثرت الغبار على رؤوس المشركين.

تظل جيادنا متمطرات   تلطمهن بالخُمر النساء

ثم التفت إلى أبي سفيان وقال:

أتهجوه ولست له بكفء   فشرُّكما لخيركما الفداء
هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه   وعند الله في ذاك الجزاء

فكان ﷺ يقرب المنبر لحسان في المسجد ويقول: **«اهجهم وروح القدس معك»**[1].

يقول: اهج المشركين وسبَّهم ومعك جبريل يؤيدك.

فكان حسان لا يُحَضِّر القصيدة ولا يتذكر، وإنما كان يجلس على المنبر فيأتيه الشعر مثل السيل.

فلما فتح الرسول ﷺ مكة وأسقطها في يديه من أربعة أماكن: خالد بن الوليد من جهة، والزبير من جهة، وسعد بن عبادة من جهة، والرسول ﷺ من جهة.

وفجأة وإذا بخيل خالد تخترق الأعداء وتدخل مكة فتخرج النساء القرشيات يحاولن رد الخيول ويلطمنهن بالخُمُر، فإذا نفس الصورة التي ذكرها حسان في قصيدته:

تظل جيادنا متمطرات   تلطمهن بالخُمُر النساء

فتبسَّم ﷺ لما رأى هذا الحادث وقال لأبي بكر وهو حوله: **«كيف يقول حسان»**[2]؟

---

(١) سبق تخريجه ص(٦١).

(٢) أخرجه الحاكم برقم (٤٤٤٢).

يقول: ذكّرني أبيات حسان.

قال: يقول يا رسول الله:

تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخُمُر النساء

وأتى عبدالله بن رواحة إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله اسمع مني أبياتاً قلتها فيك.

قال: «**قل**».

قال:

فثبَّت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

قال: «**وإياك فثبَّت**»[1].

يقول: أسأل الله أن يثبت ما آتاك من حسن مثلما ثبت موسى عليه السلام، ونصراً مثلما نصر موسى.

قال ﷺ: «**وإياك فثبَّت**»، فثبته الله حتى مات شهيداً.

ثم استقبل ﷺ قبائل العرب فدخل النابغة الجعدي واسمه أبو ليلى وجلس عند الرسول ﷺ وهو في الثمانين من عمره.

فقال: يا رسول الله عندي أبيات نظمتها فيك.

قال: «**قل**»، لأن الرسول ﷺ واسع الصدر يسمع الشعر.

أما بعض الناس فتجده ضيق الصدر لا يسمع الدعابة ولا يسمع القصائد ولا يسمع سواليف الناس ولا قصص الناس.

لكن هذا البحر الحليم الذي بعثه الله رحمة للناس كان يسمع أخبار الناس.

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٣).

ولذلك من أدب الدعوة أن تستمع للناس، لأخبارهم ولقصصهم وأعلامهم، فهذا من اللطف.

يقول جابر بن سمرة: كان ﷺ يجلس معنا بعد الفجر في المسجد فنتحدث في أخبار الجاهلية، فيستمع ونضحك ويبتسم.

ورُوي عنه ﷺ أن الناس إذا تحدثوا في الدنيا تحدث معهم، وإذا تحدثوا في المال تحدث معهم، حتى تأتي الغيبة فيسكت ويأمر الناس بالسكوت، هذا هو أدبه ﷺ.

قال النابغة: قلت يا رسول الله أبياتاً.

قال: «**قل**».

قال: قلت:

تذكرت والذكرى تهيج على الفتى ... ومن عادة المحزون أن يتذكرا

قال: «**هيه**»، يعني زد.

قال: .

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ... ولكننا كنا على الموت أصبرا
وننكر يوم الروع ألوان خيلنا ... من الضرب حتى نحسب البيض أحمرا

يقول: يوم الهول نضارب الأعداء حتى تتلطخ خيولنا البيض بالدم حتى نظن أن الشقراء حمراء.

ثم يقول في قومه:

بلغنا السماء جوداً ومجداً وسؤدداً ... وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

يقول: يا رسول الله أنا وقومي بلغنا إلى السماء من الكرم وعسى أن نبلغ فوق السماء.

فتبسَّم ﷺ وضحك وقال: «**إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟**».

يقول: إذا اخترقت السماء أين تذهب؟

قال: إلى الجنة يا رسول الله.

قال: «**لا فُضَّ فوك**»[1].

والجنة فوق السماء وسقفها عرش الرحمن، وعسى الله أن يدخلنا وإياكم الجنة.

فبقي النابغة مائة وعشرين سنة ما سقط له ضرس واحد ولا سن بدعوة المصطفى ﷺ.

وعند مسلم في الصحيح عن عمرو بن الشريد قال: ركبت خلف الرسول ﷺ على بغلته، فلما مشى قليلاً قال لي: «**يا عمرو بن الشريد أتحفظ لأمية بن الصلت شعراً؟**».

وأمية هذا من أهل الطائف مات كافراً، آمن شعره وكفر قلبه، لأنه كان يرجو أن ينزل الله عليه النبوة.

فلما جعل الله النبوة في الرسول ﷺ حسده وكذّب دعوته ومات كافراً.

قال: قلت: نعم يا رسول الله.

قال: «**هيه**»، يعني أنشدني.

قال: فأنشدته بيتاً.

ومن ضمن أبيات أمية بن الصلت يقول:

شهدت بأن وعد الله حق … وأن النار مثوى الكافرينا

(١) سبق تخريجه ص(٣٤).

وأن العرش فوق الماء طافٍ وفوق العرش رب العالمينا

سبحانه وتعالى.

فليته استمر في إيمانه، ولكن نسأل الله لنا ولكم الثبات، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال: فقال: «هيه»، فزدته بيتاً.

قال: «هيه».

قال: حتى أنشدته مائة بيت[1].

فالشعر الجميل لا بأس أن يستشهد به فإنه يدعو الكريم إلى الكرم، ويحجز البخيل عن البخل، ويدعو الجبان للعودة إلى المعركة.

يقول معاوية بن أبي سفيان: والله لقد كدت أفرُّ يوم صفين فما حبستني إلا بعض الأبيات وهي:

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تُحمدي أو تستريحي

وإكراهي على المعروف نفسي وضربي هامة البطل المشيح

إلى آخر ما قال.

قال: فتذكرت هذه الأبيات فعدت إلى المعركة وتم ما تم.

فالمقصود أن الشعر له تأثير كبير على النفس.

وأنا سوف أختار لكم بعض ما تيسّر لي من مقطوعات شعرية جميلة.

روى أهل التفسير أن عمر رضي الله عنه وأرضاه ولّى أحد الصحابة،

---

(١) سبق تخريجه ص(٣١).

اسمه النعمان بن علي، في ميسان وهي قرية كبيرة قريبة من البصرة.

قال: أنت أمير عليها اذهب.

فذهب.

وعمر كان من عادته أن يتفقد أمراءه وولاته وكان يرسل الجواسيس لهم ليعلم حقيقة حالهم.

وكان النعمان رجلاً صالحاً، ولكنه سمر يوماً مع أصحابه ففلتت من لسانه بعض الأبيات.

ولم يكن يعلم أن هذه الأبيات سوف تبلغ عمر في المدينة.

قال:

فمن مبلغ الحسناء أن حليلها بميسان يُسْقى من زجاج وحنتم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا بالجوسق المتهدم

يقول: من يخبر زوجتي وهي في المدينة أني أشرب الخمر في الحنتم، وأصبحت أميراً بعدما كنت أشرب اللبن والماء!!

وهو قالها قولاً وما فعل.

والجوسق المتهدم: هو الخيمة المتهدمة الأطراف.

فبلغت الأبيات عمر بعد أيام.

فقال: عليّ به.

فوفد إليه.

قال عمر وقد أخذ العصا بيده: من الذي يقول:

فمن مبلغ الحسناء أن حليلها بميسان يُسقى في زجاج وحنتم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا في الجوسق المتهدم

قال: أنا يا أمير المؤمنين.

قال عمر: والله لقد ساءني هذا، وعليك الحد في شرب الخمر وهو ثمانين جلدة.

قال: يا أمير المؤمنين والله ما شربتها، ووالله لا تدخل لي بطناً، وأسأل الله أن يقتلني شهيداً، والله يقول يا أمير المؤمنين: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤-٢٢٦].

قال عمر: أما بهذا فقد أسقطت الحد عنك، ولكن والله لا تلي لي ولاية ولا إمرة بعدها أبداً.

فعزله.

فذهب يجاهد فيُقتل في تُستُر شهيداً في سبيل الله إن شاء الله.

١ ـ اجتمع الأنصار في مجلس في سقيفة بني ساعدة بعد موت الرسول ﷺ وهم يظنون أن الخلافة في الأنصار لأنهم هم الذين نصروا الرسول ﷺ، بينما الخلافة لا تكون إلا في قريش.

فأتى عمر إلى أبي بكر وقال: يا أبا بكر أدرك الأنصار في سقيفة بني ساعدة.

فذهب أبو بكر وعمر وأبو عبيدة فدخلوا عليهم وهم مجتمعون.

فحاول عمر أن يتكلّم فما سمعوا.

فقام أبو بكر يتكلم وكان فصيحاً نسيباً لين القول فقال: اسكتوا أيها الناس.

فسكتوا.

قال: يا معشر الأنصار آويتمونا ونصرتمونا وأكرمتمونا وواسيتمونا، والله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوي في قبيلة بني جعفر:

جزى الله عنا جعفراً حيث أشرفت بنا نعلنا في الشارفين فزلتِ
هم خالطونا بالنفوس وألجؤوا إلى غرفات أدفأت وأظلتِ
أبوا أن يملُّونا ولو أن أمنا تلاقي الذي يلقون منا لملَّتِ

فلما سمعوا الأبيات دَعَوا لأبي بكر واستمعوا كلامه ثم بايعوه بالخلافة.

ولذلك يقول عمر: يعجبني من الرجل أن يقدم أبياتاً بين يدي حاجته.

ولذلك ترى الشحاذين الآن عند السلاطين إذا أراد أحدهم شيئاً من الدنيا فإنه ينظم ستين بيتاً ويقول فيها للسلطان: يا بركة العصر! ويا فاتح الدنيا!

فلذلك فإن أهل الحق أولى بذلك.

والله أرسل موسى وهارون إلى فرعون، فلما أصبحوا في الطريق نبَّههم الله وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

فالشعر والكلام الحسن سحر يقلب المعايير ويرقق القلوب ويغير الاتجاهات.

٢ ـ كان سيف الدولة الحمداني بطلاً من أبطال المسلمين، وكان يعيش في حلب، وقد قاتل الروم ما يقارب من ستين معركة، وكان دائماً ينتصر عليهم.

يقول فيه المتنبي يمدحه:

وقفتَ وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الرَّدى وهو نائم

يقول: سبحان الله، والله كأن الأسد نائم وكأنك نائم فكيف ما متَّ وأنت دائماً تخوض المعارك؟

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

يقول: أنت تبتسم في المعركة والأبطال أمامك مقيَّدون في السلاسل.

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة كما نُثرت فوق العروس الدراهم

يقول: نثرت الأبطال فوق الصحراء مثل ما تُنثر الدراهم على العروس.

فدعاه سيف الدولة وقال: نحن نريد أن نخرج لغزوة.

فأخذ فرسه وقال:

أصَرّف نفسي كما أشتهي وأملكها والقنا أحمر
أتاني رسولك مستعجلاً فلبَّاه شعري الذي أذخر
ولو كان يوم وغى قاتم للبّاه سيفي والأشقر

يقول: إنني أصرف نفسي مرة في الرخاء ومرة في الشدة، وأملكها والسيوف تقطر من الدم، فما أفر وقد أتاني رسولك مستعجلاً يدعوني للقتال معك، فلباه أولاً شعري الذي عندي أدّخره لك، وفي الحرب سيلبيه سيفي وفرسي.

وهذا من إبداعاته.

فالشعر الجميل يحيي الأمة ويجعلها تنهض وتلاقي الأعداء في كافة الميادين.

٣ ـ هاجمت بريطانيا اليمن في فترة مضت فدخلت بالدبابات وأتت بالطائرات ترشق المدن المسلمة وتضرب صنعاء.

فأتى أحد العلماء وقال لخطيب الجامع في صنعاء: أريد منك الخطبة هذا اليوم لأقدم قصيدة للناس.

قال: خذ الخطبة.

فجعل الخطبة كلها قصيدة طنانة رنانة رائعة يقول فيها:

يا بريطانيا رويداً رويدا إن بطش الإِلٰه كان شديدا

انظر إلى الصلة مع الله والاتصال به، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

يا بريطانيا رويداً رويداً إن بطش الإِلٰه كان شديدا
إن بطش الإِلٰه أهلك فرعون وعاداً من قبلكم وثمودا
لا تظنوا هدم المدائن يودي عزمنا أو يلين بأساً صلودا

لا تحسبوا أنكم إذا هدمتم المدائن أننا سنموت.

إن تبيدوا من البيوت بطياراتكم ما غدا لدنيا مشيدا
فلنا في الجبال تلك بيوت أجدادنا لن تبيدا
فالنزال النزال إن كنتم ممن لدى الحرب لا يخاف البنودا
لتروا من يبيت منا ومنكم موثقاً عند خصمة مصفودا
ما خضعنا للترك مع قربهم في الدين منا فكيف نرضى البعيدا
فهم في الأنام أشجع جيش فسلوهم هل صادفونا فهودا
أفترجو إنجلترا من بلاد الله تباً لسعيها أن تبيدا
يا بني قومنا سراعاً إلى الله فقد فاز من يموت شهيدا

وبعد قصيدته هذه خرج ما يقارب من مائة ألف وسحقوا قوات بريطانيا ومنعوها أن تدخل اليمن.

٤ ـ كان علي بن موسى الرضا من أولاد علي بن أبي طالب، وكان ولي العهد للمأمون في الدولة العباسية، وكان رجلاً فيه خير كثير وكان رئيساً سلطاناً مطاعاً.

فقيل للحسن بن هاني أحد الشعراء: مدحت الوزراء كلهم إلا ابن علي بن أبي طالب وهو الذي يستأهل المدح.

فقال فيه مقطوعة من أجمل ما قيل يعتذر فيها له بعد أن ذهب إليه:

قيل لي أنت واحد من الناس في ... كل معنى من الكلام بديه
لك في جوهر الكلام معانٍ ... يجتني الدر في يدي مجتنيه
فعلام تركت مدح ابن موسى ... ذا الخصال التي تجمعن فيه
قلتُ كيف أهتدي لمدح إمام ... كان جبريل صاحباً لأبيه

يقول: أنا أعرف أمدح الناس الذين هم مثلي، أما أنت فما أستطيع مدحك لأن أباك كان صاحباً لجبريل.

يعني الرسول ﷺ.

والصحيح أنه قال في بيته:

كان جبريل خادماً لأبيه

وأنا حولت الكلام كما حوله الذهبي وقال: هذا خطأ فما كان جبريل خادماً لأبيه، بل كان صاحباً ومعلِّماً.

٥ ـ في آخر الزمان سوف يتكلَّم الرويبضة الذي ما كان له قدر في الناس، فيسوَّد غير المسوّد، ويوسَّد الأمر إلى غير أهله.

فأتى أبو العلاء المعري يتكلم عن هذا الحال في أبيات جميلة فيقول:

إذا عَيّر الطائي بالبخل مادر ... وعَيّر قسًّا بالفهاهة باقل
وقال الدجى للشمس أنت كسيفة ... وقال السهى للبدر وجهك حائل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة ... ويا نفس جدي إن دهرك هازل

ومادر هذا كان من أبخل العرب.

كان من بخله أنه إذا أراد أن يحلب شاته يمصها بفمه حتى لا يسمع الناس صوت الحليب في الطاسة فيأتون!!

وأما قس فهو قس بن ساعدة أخطب العرب.

وباقل هذا من أعيا العرب لا يعرف أن يتكلَّم.

يقولون: كانت أمه تلقنه اسمه في أول النهار فينساه مع الظهر!

بلغ من حمقه أن صنعت له أمه قلادة ووضعتها عليه لكي لا يختلط الصبية فتعرفه إذا خرج في الشارع فتأتي به.

فأتى أخوه في الليل فأخذ القلادة فلبسها.

فقام باقل في الصباح فرأى القلادة على أخيه فقال: يا أخي أنت أنا فمن أنا؟!!

٦ ـ قال أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي يوماً لجلاّسه من الشعراء: من يكمل لي هذا البيت وأعطيه هذه البردة الثمينة؟

فقال الشعراء: أعطنا البيت.

قال:

وهاجرة وقفت بها قلوصي يُقَطِّع حَرُّها ظهرَ العضايا

أي: هاجرة شديدة الحر وقفت بها ناقتي، ومن شدة حرارتها أنها تقطع الشجر.

فقام الشعراء على ركبهم أيهم يسبق ليأخذ الجائزة.

فقال بشار بن برد الشاعر العجيب:

وقفت بها القلوص ففاض دمعي على خدِّي وأقصر واعضايا

فرمى بالبردة عليه فشراها الناس منه.

ومن شعر بشار الجميل قوله:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وهو الذي يقول:

إن في بردي جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم

فأتاه رجل فوجده سميناً كالثور فقال: أين قولك:

إن في برديّ جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم

وأنت كما ترى سمين بطين؟

فقال: ألم يقل الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤-٢٢٦].

٧ ـ البردوني اليمني من أشعر الناس وهو الآن حي يرزق، لكنه أعمى القلب والبصر لأنه من كهنة الحداثيين.

العجيب.. أنه نظم قصيدة في الرسول ﷺ من أعجب ما سمعت في حياتي، من أبياتها:

بشرى من الغيب ألقت في فم الغار وحياً وأفضت إلى الدنيا بأسرار
بشرى النبوة طافت كالشذى سحراً وأعلنت في الدنا ميلاد أنوار
نحن اليمانين يا طه تطير بنا إلى روابي العلا أرواح أنصار
أنا ابن أنصارك العز الألى سحقوا جيش الطغاة بجيش منك جرار
إذا تذكرتَ عماراً وسيرته فافخر بنا إننا أحفاد عمار

وهي قصيدة طويلة فيما يقارب الثمانين بيتاً.

وقد عارضتها بأبيات في ما يقارب أربعين بيتاً منها:

صوت من الغور أم نور من الغار أم ومضة الفكر أم تاريخ أسرار
يا عيد عمري ويا فجري ويا أملي ويا محبة أعمار وأقطار
تطوي الدياجير مثل الفجر في ألقٍ تروي الفيافي كمثل السلسل الجاري

الشمس والبدر في كفيك لو نزلت ... ما أطفأت فيك ضوء النور والنار
أنت اليتيم ولكن فيك ملحمة ... يذوب في ساحها مليون جبار
فما لقومي بلا وعي قد انتكسوا ... أصغوا لصيحات عِربيد وخمار
يبيع ذمته المعهود في وثن ... والدين ينهار منه في شفا هار
لو بيع في السوق ما حازوا له ثمناً ... ولو شروه لكان الغبن للشاري
شادوا الدنانير هالات مزخرفة ... جَمّاعها لا يساوي ربع دينار

وتجدونها كاملة في مجلد الشعر من هذا المجموع.

٨ ـ نزار قباني تعرفونه وأنصحكم أن لا تقرؤوا له، فكل قصائده عفنة تفوح ذلّا وجنساً وشتماً.

إنما له بعض الأبيات القليلة التي استطاع فيها أن يجمع بين حسن المعنى وجمال الأسلوب.

يقول:

دمشق يا كنز أحلامي ومروحتي ... أشكو العروبة أم أشكو لك العربا
أدمت سياط حزيران ظهورهم ... فقبلوها وباسوا كفّ من ضربا
وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا ... متى البنادق كانت تسكن الكتبا

يقول: هؤلاء العرب ليس عندهم إلا حزيران، أي: نكسة القومية العربية.

لكن بدراً وحطين وأحداً واليرموك وعين جالوت، ومعارك الإِسلام الخالدة، ومعارك لا إله إلا الله يوم اتصلنا بالله وكنا عباداً لله، ولا يعرفون ذلك كله لأنهم تركوا منهج الله وكتابه وسنة رسوله ﷺ.

زمانك بستان وروضك أخضر ... وذكراك عصفور من القلب ينقرُ
نساء فلسطين تكحّلن بالأسى ... وفي بيت لحم قاصرات وقُصَّرُ
وليمون يافا يابس في أصوله ... وهل شجر في قبضة الظلم يثمرُ

رفيق صلاح الدين هل لك عودة ... فإن جيوش الروم تنهى وتأمرُ
رفاقك في الأغوار شدوا سروجهم ... وجيشك في حطين صلُّوا وكبروا
تغني بك الدنيا كأنك طارق ... على بركات الله يرسو ويبحر
تناديك من شوق مآذن مكة ... ويبكيك بدر يا حبيبي وخيبرُ
تعال إلينا فالمروءات أقفرت ... وموطن آبائي زجاج مكسرُ
يطاردنا كالموت ألف خليفة ... ففي الشرق هولاكو وفي الغرب قيصرُ

٩ ـ هجا أحد الشعراء الحجاج بن يوسف الثقفي السفاح فأمر بملاحقته حتى يُحضر عنده.

فقبض عليه أعوان الحجاج وقيَّدوه وأركبوه الراحلة ليذهبوا به إلى الحجاج.

وفي الطريق رأى حمامتين تتجاوبان، وكان قد ترك أطفاله وزوجته يبكون عليه وهو يعرف أنه لن يعود إلا مقتولاً.

فقال:

لقد شاقني فازددت شوقاً ... بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بصوت أعجميٍّ ... على غصنين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سليمى ... وفي الغرب اغتراب غير دان

يقول: أن شجر البان معناه أن تبين مني سليمى زوجتي.

وأما شجر الغرب فهو اغتراب عن الأهل والأوطان.

أما ابن زيدون فله قصيدة جميلة يقول فيها:

بنتم وبنّا فما ابتلَّت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تناديكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء ففي ... مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

وقد عارضه بعض الشعراء منهم أحمد شوقي الذي يقول عندما ماتت أمه ودفنها في حلوان في مصر قال:

كـنـز بـحـلـوان عـنـد الله نـطـلـبـه وخـيـر الـوداع من خـيـر الـمؤدينا

يقول: هذا الكنز جعلته في حلوان وسوف أطلبه من الله، فهي خير وديعة تُطلب من خير المؤدين وهو الله.

١١ ـ التهامي شاعر عجيب مات ابنه وهو في الرابعة عشرة من عمره.

فنظم قصيدة رائعة من أروع القصائد يقول فيها:

حـكـم الـمـنـيـة فـي الـبـريـة جـارِ مـا هـذه الـدنـيـا بـدار قـرار
إنـي أصـبـت بـصـارم ذي رونـق أعـددتـه لـطـلابـة الأوتـار
جـاورتُ أعـدائـي وجـاور ربـه شـتـان بـيـن جـواره وجـواري

يقول: أما أنا فبقيت مع الحساد وأهل الدنيا وأهل النكد، وأما هو فأخذه الله إلى جواره.

يقولون: لما توفي التهامي رؤي في المنام فقالوا: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي.

قالوا: بماذا؟

قال: بقولي:

جـاورتُ أعـدائـي وجـاور ربـه شـتـان بـيـن جـواره وجـواري

ولذلك يقول ابن القيم: لله در آسية امرأة فرعون عليها السلام يوم قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

قال: فقدمت الجار قبل الدار فقالت: ﴿عِندَكَ بَيْتًا﴾ [التحريم: ١١]، ولم تقل: بيتاً في الجنة عندك.

نسأل الله أن نكون من جيرانه في دار النعيم.

١٢ ـ توفيت زوجة جرير بن عطية الغطفي الشاعر المشهور فقال:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتّع نظرة في القبر حيث تمكن المحفار
صلّى عليك الله في عليائه والصالحون عليك والأبرار

١٣ ـ دخل متمم بن نويرة على عمر رضي الله عنه، ومتمم شاعر من شعراء العرب.

فقال عمر: يا متمم يا ليتني كنت شاعراً فأرثي أخي زيداً.

وزيد أسلم قبل عمر، وهاجر قبل عمر، واستُشْهد قبل عمر في اليمامة.

وكان عمر كلما ذكر زيداً يقول: والله ما هبّت الصّبا من نجد إلا جاءتني بريح زيد.

ومتمم هذا قُتِل أخوه مالك، قتله خالد بن الوليد.

فبكى متمم على أخيه حتى ابيضّت عيناه.

يقول في قصيدة له:

وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتُبّعَا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

يقول: سبحان الله ما كأننا عشنا أنا ومالك، أي لسرعة انقضاء الدنيا.

ولذلك كان الحسن البصري إذا ودع إخوانه بكى حتى يخاف عليه ويقول:

وخفّف وجدي أن فرقة واحد فراق حياة لا فراق ممات

قال المتنبي يوم فارق سيف الدولة وهو غضبان عليه:

فـراق ومـن فـارقـت غـيـر مـذمـم ... وأمٌّ ومـن يـمّـمـت غـيـر مـيـمَّـم
رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى ... هوى كاسر كفي وقوسي وأسهمي

يقول متمم في أخيه مالك:

لقد لامني عند القبور على البكاء ... رفيقي لتذراف الدموع السوافك

يقول: لاموني لأنني أبكي أخي كثيراً.

فـقـال: أتـبـكـي كـل قـبـر رأيـتـه ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له: إن الشجى يبعث الشجى ... فـدعـنـي فـهـذا كـلـه قـبـر مـالـك

١٤ ـ أحد قواد العرب اسمه سحمد بن حميد الطوسي في عصر المعتصم العباسي قاتل الكفار من صلاة الصبح حتى غربت الشمس، ثم قُتل وكان عمره ما يقارب السادسة والثلاثين، وكان شاباً قوياً وكان مؤمناً بالله.

لبس أكفانه من الصباح وأخذ يقاتل بالسيف حتى تكسرت سيوفه وقتل مع الغروب.

فلما قتل أتى أبو تمام الشاعر فعمل فيه قصيدة يرثيه.

فلما سمعها الخليفة قال: والله الذي لا إله إلا هو إنني وددت أني قُتِلت وأنها قيلت فيّ.

يقول أبو تمام:

كذا فليجلَّ الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفضْ ماؤها عذر
تـوفـيـت الآمـال بـعـد مـحـمـد ... فأصبح في شغل عن السفر السفر
فتى كـلـمـا فـاضـت عـيـون قـبـيـلـة ... دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
تردّى ثياب الموت حمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سندس خضر

ثوى طاهر الأردان لم تبقَ بقعة   غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر

يقول: حتى الأرض كل الأرض كانت تتمنى أن تكون قبراً لك.

وقد كان فوت الموت صعباً فردَّه   عليه الحياض المر والخلق الوعر
ونفس تعاف الذل حتى كأنه   هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
عليك سلام الله وقفاً فإنني   رأيت الكريم الحرَّ ليس له عمر

إلى آخر ما قال، وهي من أبدع ما قيل.

١٥ ـ يقول الحسن البصري: دخلت على بشر بن مروان أخي عبدالملك بن مروان والي العراق الذي يقول فيه الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودمٍ مهراق

يقول: فوجدته بضّاً سميناً وعنده الأطباء، وعنده الحشم، وعنده المغنون والشعراء.

قال: ثم خرجت وجئت في اليوم الثاني وإذا هو مريض في سكرات الموت، قد نزل من على سريره وكشف فراشه وهو يتقلب على التراب ويبكي ويقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقّة: ٢٨، ٢٩].

قال: والله ما خرجت من قصره حتى مات فحملناه إلى المقبرة. فأتى الفرزدق الشاعر فقال:

أعيناي إن لم تسعداني ألمكما   فما بعد بشر من عزاء ولا صبر
ألم تر أن الأرض بعدك أظلمت   وأن نجوم الليل بعدك لا تسري

١٦ ـ أحد المحدثين يقول في الرسول ﷺ:

من زار بابك لم تبرح جوارحه   تروي أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة   والقلب عن جابر والسمع عن حسن

العين عن قرة: أي أحد المحدثين اسمه قرة.

والكف عن صلة: وهو صلة بن أشيم المحدث.

والقلب عن جابر: وهو جابر بن عبدالله.

والسمع عن حسن: وهو الحسن البصري.

وهو يريد مرادات أخرى!

١٧ ـ أهدر الرسول ﷺ دم كعب بن زهير الشاعر لأنه هجاه في قصيدة وسبَّه، والرسول ﷺ مبرأ عن السب وقد فديناه بأعراضنا وبدمائنا وأموالنا.

فأصبح كعب ينام في النهار ويمضي في الليل.

وفي الأخير ضاقت به الأرض بما رحبت، فذهب إلى رؤساء قومه فقال: ما الحل؟

قالوا: انظم قصيدة وامضِ إلى الرسول وامدحه بها.

فذهب فأمسى عند أبي بكر في الليل فقال: يا أبا بكر ما رأيك؟

قال: عندك شيء من الشعر؟

قال: عندي قصيدة.

قال: إذا صلَّينا الصبح فسوف أتقدم إلى الرسول ﷺ وأستأذن لك في أن تلقي قصيدتك.

فلما صلى ﷺ صلاة الفجر بالناس قال أبو بكر: يا رسول الله هذا كعب بن زهير يريد أن يلقي عليك أبياتاً.

قال: «**قل**»، وكان أحلم الناس ﷺ وأرحم الناس.

قال:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيَّم إثرها لم يفد مكبولُ

يذكر زوجته واسمها سعاد.

فأوقفه ﷺ وقال: **«من هي سعاد»؟**

قال: زوجتي يا رسول الله.

قال: **«لم تبن إذاً»**.

قال:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول
نُبِّئت أن رسول الله أوعدني   والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة   القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم   أظلم ولو كثرت فيّ الأقاويل
تظل ترعد من وجدٍ بوادره   إن لم يكن من رسول الله تنويل
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به   رأى وأسمع ما قد أسمع الفيل

يقول: يا رسول الله، والله لقد سهرتُ وتعبتُ وخفتُ وتشردتُ عن أهلي وطاردني الناس، فارحمني يا رسول الله واحلم عني وكف عني.

حتى وضعتُ يميني ما أنازعها   في كف ذي نقمات قوله القيل
إن الرسول لنور يستضاء به   مهندٌ من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم   ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف   يوم اللقاء ولا ميل معازيل
لا يقع الطعن إلا في نحورهم   وما لهم عن حياض الموت تهليل
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلة حدباء محمول

فخلع ﷺ بردته وأعطاه إياها.

فخرج بالبردة فباعها لمعاوية بن أبي سفيان بأربعين ألف درهم[١].

١٨ ـ يقول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما في البخاري: طرقت الباب على الرسول ﷺ فقال: «من»؟

قلت: أنا.

قال: «**أنا أنا**»، كأنه كرهها[٢].

فليس من السنة أن تقول إذا طرقت على أحد وسألك عن اسمك (أنا) لأنها لا تدل على شخصك، بل توهم وتلتبس على الناس. ومناسبة هذا الحديث أن الشاعر الشيرازي قال أبياتاً جميلة فيها نحو هذا المعنى:

قال لي المحبوب لما زرته ... مَنْ ببابي قلت بالباب أنا
قال لي أخطأت تعريف الهوى ... حينما فرقت فيه بيننا
ومضى عام فلما جئته ... أطرق الباب عليه موهنا
قال لي من أنت؟ قلت انظر فما ... ثمَّ إلا أنت بالباب هنا
قال لي أحسنت تعريف الهوى ... وعرفت الحب فادخل يا أنا!!

١٩ ـ نظر إبراهيم عليه السلام إلى المرآة فرأى شيبة في لحيته فقال: يا ربّ ما هذا؟

قال الله: وقار يا إبراهيم.

---

(١) قريباً من هذا السياق أخرجه الطبري في الكبير (١٩ برقم: ٤٠٣)، والحاكم برقم (٦٤٧٧)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠٩٣١)، وقد ذكر أبو زكريا في تهذيب الأسماء بأن سعاد هي امرأة كعب برقم (١١٨٥)، وانظر: السيرة النبوية (١٨٢/٥)، ومجمع الزوائد (٣٩٣/٩)، والإصابة (٥٩٢/٥ ـ ٥٩٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٢٥٠)، مسلم برقم (٢١٥٥)، وأحمد برقم (١٣٧٧٣)، وغيرهم.

قال: اللهم زدني وقاراً.

فلذا يقول المستنجد الخليفة:

عيَّرتني بالشيب وهو وقار ... ليتها عيرتني بما هو عار

وقال أبو العتاهية:

بكيت على الشباب بدمع عيني ... فلم يُغْنِ البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

وأحد الشعراء العرب كبر سنه فأصبح في الثمانين، فما كان ينام في الليل إلا قليلاً، وكان دائماً يتأوه من طول السنين ومن الأمراض ومن الأوجاع.

فقال له أولاده: ماذا تشتكي؟ لقد أزعجتنا في الليل.

فقال:

قالوا أنينك طول الليل يزعجنا ... فما الذي تشتكي قلت الثمانينا

ويُروى عن الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية رحمه الله رحمة واسعة، أنه خرج في آخر خروج له من المسجد الجامع الكبير بالرياض وهو يتكىء على عصا وكان به كحّة وكبر في السن.

فلما أخذ ينزل الدرج في تعب ويستعين ببعض الناس قال:

إذا الرجال ولدَتْ أولادها ... وأخذت أسقامها تعتادها
وكثرت من مرض عوّادها ... فهي زروع قد دنا حصادها

ومات بعد يومين!

٢٠ ـ مات أبو نواس الشاعر الماجن فرؤي في المنام فقالوا: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي وأدخلني الجنة.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قالوا: بماذا؟

قال: بقصيدتي النرجسية:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لُجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على كُثُب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

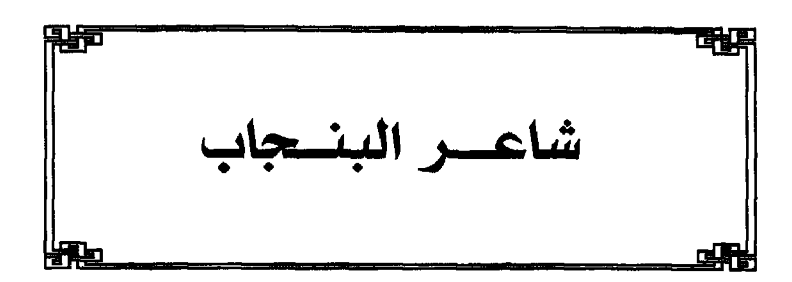
وكان يقول في سكرات الموت:

لهونا لعمر الله حتى تتابعت ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ويأذن في توباتنا فنتوب
إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل طرفة ولا أن ما يخفى عليك يغيب

أسأل الله أن يتوب عليّ وعليكم وعلى جميع المسلمين.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.





شاعر البنجاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

هذه الرسالة عن شاعر عالمي وليس بإقليمي.

فهو ليس على مستوى أبها ولا الجنوب ولا الجزيرة، ولا على مستوى العرب، ولا على مستوى المسلمين.

إنه شاعر على مستوى القارات الست يعرفه الناس جميعاً.

فالكل يعرف محمد إقبال، الأمريكان والأوربيون والهنود واليابانيون والصينيون والأتراك والأفغان.

ويعرفه العلماء والأدباء، ولن أبالغ في مدحه لأنه مشهور عندكم، ولكني أتكلم عنه في ظلال هذه الكلمات الثلاث (الإيمان، والحب، والطموح).

الإيمان بالله تبارك وتعالى رباً، وبمحمدٍ ﷺ نبياً، وبالإسلام ديناً.

والحب كما ترجمه محمد إقبال.

والطموح الذي يعني الهمة العالية التي تعدَّت حدود الزمن وآفاق التاريخ.

• تعريف بالشاعر:

محمد إقبال شاعر هندي الأصل والجنس والمولد، ولد في البنجاب عام ١٨٧٧م.

لقد أثّر في حياته ثلاثة مؤثرات:

أولاً: القرآن الكريم، حيث كان محمد إقبال يقرأ القرآن من بعد الفجر إلى طلوع الشمس في كل يوم، ولا يختم المصحف كما قالوا عنه حتى يبله بالدموع.

لقد كان يتأثر تأثراً بالغاً من القرآن لأنه عرف مشارب الجاهلية، وقرأ الفلسفة، وقرأ العلوم الأخرى، وسافر إلى الغرب وذهب وأتى.

الثاني: اطلاعه الواسع على مختلف الثقافات.

يقول عنه الدكتور الشرباصي: أظن أنه ما وقع كتاب في يد محمد إقبال إلا التهمه كما يلتهم الطعام.

والرجل ذكي ذكاءً إبداعيًا.

الثالث: خروجه إلى العالم بمختلف توجهاته، حيث خرج أولاً من بومباي إلى قناة السويس، ثم ذهب إلى أوربا واستقر في لندن فترة من الفترات، ثم ذهب إلى ألمانيا فحضر رسالة الدكتوراه في الفلسفة ودرس هناك في الجامعة ثم عاد يطوي العالم، فمرَّ بالعالم العربي، وكان عند تنقله يلقى ترحيباً واسعاً من العالم.

وكان إذا هبط بلداً سمع الناس بقدومه فخرجوا لاستقباله.

كانت محادثة الركبان تخبرنا   عن جعفر بن فلاح أروع الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

يقول أبو الحسن الندوي في كتابه (روائع إقبال): وجدته شاعر الطموح والحب والإِيمان، أُشهد على نفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري وثارت عواطفي وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي، وبحركة للحماسة الإِسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري.

وأُشهد الله على ما شهد عليه أبو الحسن الندوي بأنه يأتيني أمر عجيب إذا قرأت شعره، وسوف أُورد نماذج لشعره في هذه الرسالة.

أما أحواله الشخصية: فقد كان في معيشة متوسطة تميل إلى الفقر، من أبوين متدينين.

دخل عليه أبوه وهو يقرأ القرآن بعد الفجر وهو يلاعب أخته الطفلة الصغيرة فقال: يا إقبال اقرأ القرآن كأنه أُنزل عليك.

قال: فأخذت بهذه الوصية، وكنت أقرأ القرآن كأنه أُنزل عليّ فيتأثر بذلك.

يقول أحد المفسرين المعاصرين: كدت أتوافق أنا ومحمد إقبال في المعاني وربما توافقنا في الألفاظ.

تزوج ثلاث مرات: المرة الأولى لم يُوَفق فيها وأنجب من زوجته ولداً وطفلتين.

وتزوج الثانية ثم الثالثة.

كان يسكن بيتاً متواضعاً.

كانوا يقولون له: لماذا تسكن هذا البيت؟

فيقول: أنا أسكن العالم.

وبالفعل كان يسكن العالم.

كان يتبرم بالأوضاع التي يعيش فيها، فينظر إلى الهنود وإذا هم يعيشون حياة بعيدة عن الإسلام، وينظر وإذا المسلمون مستذلون بالاستعمار فيتضايق ويقطب جبينه ويحاول أن يثور كالبركان.

عاش ثلاث فترات: فترة الشباب قضاها في طلب العلم النافع وهو علم مجمل من علم الشريعة، فليس الرجل مفتياً وليس واعظاً، وإنما كان عنده علم مجمل، ونخالفه كطلبة العلم ويخالفه العلماء في الشريعة في بعض القضايا التي سوف أعرض لها.

وأنا لا أعرض محمد إقبال على أنه مفتٍ أو أنه من هيئة كبار العلماء، بل أعرضه عليكم كشاعر عالمي استطاع أن يؤثر بشعره الإسلامي الحي.

أما الفترة الثانية فهي فترة الرجولة حيث عاش إقبال صارخاً في شعبه يريد أن يوحد دولته.

ولذلك هو الذي كان بعد الله سبباً في إقامة دولة الباكستان، وأهل الباكستان اليوم إذا احتفلوا بعيد محمد إقبال - على ملاحظتنا لهذا - يخرج ثمانون مليوناً في الشوارع يحملون صور محمد إقبال ويهتفون:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضي الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

والشعر لإقبال.

وأما فترة الشيخوخة فقضاها متأملاً حيث كان يصعد الجبال ويكتب.

يقول الباكستانيون: نحن لا نفهم شعره، ولكن شعره مترجم، وربما تكلم بالعربية في بعض القصائد فحرك الأجيال.

يقولون: كان يكتب قصيدة في الليل فتنشر في الصحيفة في اليوم

التالي كما يذكر الشرباصي وغيره، فيخرج الشعب هائجاً مائجاً في الشارع.

وهذا والله هو الأدب.

وهذا والله هو السحر الحلال.

وهذا والله هو الفيتامين الأمثل للشعوب.

ولذلك ثار الشعب على الإِنجليز وأقاموا دولتهم برغم المعارضات.

● من الذين تكلَّموا عن محمد إقبال:

١ ـ أبو الحسن الندوي في كتابه (روائع إقبال).

وقال عن إقبال: أنا أخالفه في بعض القضايا.

وصدق! لأن إقبال أراد أن يحوّل بعض الإِسلام إلى قضايا فلسفية، ونحن لا نوافقه على ذلك.

٢ ـ (إقبال الشاعر الثائر)، لنجيب الكيلاني.

٣ ـ (إقبال في مسجد قرطبة)، للدكتور عبدالوهاب عزام.

٤ ـ (فلسفة إقبال)، للدكتور الصاوي علي شعلان.

٥ ـ (إقبال وموقفه من الحضارة الغربية)، لخليل الرحمن عبدالرحمن.

٦ ـ (إقبال العرب)، لمجموعة من العلماء.

٧ ـ وكتب عنه طه حسين مقالة.

٨ ـ وكتب عنه العقاد مقالة وذكره في كثير من كتبه.

٩ ـ وكتب عنه الطنطاوي مقالات ونسي نفسه وهو يتحدث عن إقبال.

١٠ ـ وتعرض له سيد قطب كثيراً وأشاد به.

١١ ـ وكتب عنه المراغي شيخ الأزهر.

١٢ ـ والشرباصي.

ولا أعرف مفكراً إسلامياً إلا وتكلّم عن محمد إقبال إما بقصيدة أو بموعظة أو بكلمة أو بمقالة، وعندي قضايا في هذه الرسالة أعرضها عن حياة إقبال.

أولاً: الإِيمان في شعر محمد إقبال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]، الإِيمان الذي يصل بالله.

الإِيمان الذي تفتقر إليه الدنيا.

الإِيمان الذي من وجده وجد كل شيء، ومن فقده فقد كل شيء.

أين ما يدعى ظلاماً يا رفيق الليل أينا	إن نور الله في قلبي وهذا ما أراه
قد مشينا في ضياء الوحي حباً واهتدينا	ورسول الله قاد الركب تحدوه خطاه

يقول إقبال في بيتين جميلين من قصيدته العجيبة الطويلة (شكوى دمعة) أرسلها من عينه يشكو إلى الله حال العالم الإِسلامي.

ويشكو من المسلمين بعدهم عن دينهم وعن رسالتهم، وبيّن لهم أن اتصال الإِيمان بالدنيا أمر مجمع عليه، وأن الإِنسان لا يصلح إلا بالآخرة، وأن المسجد لا يصلح إلا مع المزرعة، والمزرعة مع المسجد.

ولذلك فقد خالف السعد الشيرازي وهو واعظ أفغاني وشاعر كبير، لأنه واعظ يريد أن يُبْقِي الإِسلام في طرف المسجد.

ولكن هذا لا يقدح في شاعرية الشيرازي القائل:

بكت عيني غداة البين دمعاً ... وأخرى بالبكا بخلت علينا
فعاقبت التي بالدمع ضنت ... بأن أغمضتها يوم التقينا
وأسعدت التي بالدمع جادت ... بأن أقررتها بالوصل عينا

ويقول:

ما مر من طيف الهوى بمسمعي ... لو سمعتْ ورق الحمى ناحت معي
يا معشر الخلان قولوا للمعافى ... لست تدري ما بقلب الموجع

أما إقبال فيقول:

إذا الإِيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضي الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا
تساندت الكواكب فاستقرت ... ولولا الجاذبية ما بقينا
وفي التوحيد للهمم اتحاد ... ولن تبنوا العلا متفرّقينا

ويقول عن المؤمن والكافر بأن الكافر ضيق ومتخلف وحقير في علم الله وفي الأرض وفي الكون.

ويأتي بالمؤمن فيجعله علماً وكوناً.

يقول في بيتين جميلين:

إنما الكافر تيهان له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كوناً تاهت الآفاق فيه

يقول: إن الكافر تتيه الآفاق وفيه ويتيه هو في الآفاق.

وأرى المؤمن هو الذي تتيه الآفاق فيه.

ويصف مشاعره وأحاسيسه في قصيدة اسمها (إلى مدينتك يا رسول الله).

وهي قصيدة قد ترجمها الندوي.

يقول: (يا رسول الله زرتك البارحة في المنام.. إليك أشكو ظلم الهنود.. وأشكو ماذا فعلوا برسالتك.. إنهم يا رسول الله حوَّلوا رسالتك إلى تمائم ومسابح وإلى رقصات.. إن رسالتك يا رسول الله انبعثت من المدينة فأحيتني وأحيت أمثالي.. لكن رفض الهنود أن يستجيبوا لك يا رسول الله).

ثم يصف خروج الرسالة من طَيْبة الطيِّبة وذهابها إلى العراق، ثم إلى الأتراك، ثم إلى الهنود، وأنها ترتفع بإذن الله لتغطي الدنيا.

من ثراها قد نثرنا النور في دنيا الوجود وعلى أهدابها صغنا مغانٍ من خلود
حكمة الإيمان من طيبة سارت للعراق وسل الأتراك قد سار سريعاً للهنود

وكانت قضيته الكبرى أن يُسلم الناس.

وأرسل رسالة إلى لينين يقول فيها: «اتق الله يا لينين فإنك قصمت ظهر الرأسمالية فأحسنت، فألحق بقصمك للرأسمالية لا إله والحياة مادة».

ودخل على نادر شاه في كابول وكان نادر شاه ملك أفغانستان آنذاك، وقد كتب رسالة لمحمد إقبال يقول فيها: اقدم إلينا.

فأقبل محمد إقبال فخرج الأفغان يستقبلونه في الشوارع.

فأخذ قبل أن يقابل الملك نسخة من المصحف وقال: يا نادر شاه! والله لن تعلو بشعب الأفغان حتى تأخذ هذه الوثيقة التي جاءت من الله.

• العرب في شعر إقبال:

هو يحب العرب كثيراً ويقول: يا ليتني أجيد اللغة العربية مائة بالمائة.

ولو أجادها مئة بالمئة لأبكانا كما أبكى الهنود، ولأبدع لنا في أدبنا وفي ثرواتنا وجعلنا نعيش أدباً رائداً جميلاً.

ولكن لا زلنا والحمد لله نتمتع بمقطوعاته الجميلة الإيمانية ونسأل الله أن يغفر له.

يقول في قصيدته واصفاً حاله:

إن كان لي نغم الهنود ودنّهم ... لكن ذاك الصوت من عدنان

يقول: أنا أتكلم بالهندي ولا أعرف العربي، لكني يا رسول الله أحبك وأموت في حبك وقلبي عربي.

ويقول:

هضبات نجد في مغانيها المها ... ومحاور الغزلان ملء تلالها
والمجد مشتاق وأمة أحمد ... يتهيأ التاريخ لاستقبالها

هكذا انبعاث الأرواح والإيمان والعقائد في أبيات الشعر.

ثم يقول: سبحانك يا رب، خرج من الصحراء أناس كانوا يعبدون اللات والعزى ومناة ثم أصبحوا يطوفون بالبيت لله.

وأصبح عابدو الأصنام قدماً ... حماة البيت والركن اليماني

هم جيل الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا يطوفون بمناة والعزى واللات فأصبحوا يحملون لا إله إلا الله، والرسالة الخالدة، ويطوفون بالبيت لله رب العالمين.

ويقول في قصيدة له اسمها (تاجك مكة):

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع ... اسمك فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالاً في الجبال وربما ... سرنا على موج البحار بحارا
لن تنسَ أفريقيا ولا صحراؤها ... سجداتنا والأرض تقذف نارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة ... خضراء تنبت حولنا الأزهارا
أرواحنا يا رب فوق أكفنا ... نرجو ثوابك مغنماً وجوارا

يقول: ما كنا نأتي بأرواحنا في أجسامنا قبل المعركة بل كنا نبيعها إلى الله والثمن الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

لم نخشَ طاغوتاً يحاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا
ندعو جهاراً لا إله سوى الذي خلق الوجود وقدَّر الأقدارا
كنا نرى الأصنام من ذهب فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لحازها كنزاً وصاغ الحلي والدينارا

يقول: يا رب أما فتح أجدادنا الهند.

فقدم الكفار لهم الأصنام من ذهب.

فقالوا: لا نريدها وأحرقوها وهدموها فوق رؤوس الكفار.

ويقول:

محمود مثل إياس قاما كلاهما لك بالعبادة تائباً مستغفرا
العبد والمولى على قدم التقى هتفا بذكرك في الوجود وكبّرا

والمقصود من هذين البيتين محمود بن سبكتكين المسلم الذي كان عنده ألف ألف من الأبطال فتح بهم ما وراء نهر سيحون وجيحون ثم قدَّموا له الأصنام كما فعل قتيبة بن مسلم فرفض وقال: لا والله لا يدعوني الله يوم القيامة: يا مشتري الأصنام، ولكن يدعوني: يا مهدِّم الأصنام.

فكسرها بفأسه وأحرقها وأتى بالملك فذبحه ونكسه على السطح.

فلذا يقول: (محمود مثل إياس) وإياس خادم محمود بن سبكتكين وهو رافع الراية بعده رحم الله الجميع.

ويقول في الحجاز:

آه من ساعة الغضى في حجازٍ نغمات مضين لي هل تعود

آذنت عيشنا ببؤس مقيم   هل لعلم الأسرار قلب جديد

لماذا يحب الحجاز؟

ألغبار الحجاز؟

ألجبال الحجاز السوداء؟

لا . .

بل لأن في الحجاز نوراً انبعث ورسالة خالدة وجماجم الأبطال.

ولأن في الحجاز التوحيد والتاريخ والمشاعر الإسلامية.

وله قصيدة اسمها: (ناقتي في الحجاز) وصف فيها نفسه وبكى.

وقال: يا ليتني أعتمر مرة ثانية.

وشرح ديوان المتنبي، وكان يدور في الليل والنهار يلقي المحاضرات يريد أن يعيد الأمة إلى الله بشعره.

يقول:

يا قلب حسبك لا تفيق صراحة   إلا على مصباح نور محمد

يقول: لا يفيق قلبي إلا على مصباح نور الرسول ﷺ.

ويقول في عالم الإيمان قبل هذا وقد ذكرتها في بعض المناسبات:

(بحثت عنك يا رسول الله: في ألمانيا فما وجدتك).

هل سافر ﷺ إلى ألمانيا؟

لا، ولكن إقبالاً درس في ألمانيا الفلسفة فقال: (وجدت القاطرات والسيارات والشاحنات والطائرات والثلاجات والبرادات وما وجدت من أُنزلت عليه الآيات البينات)، عليه الصلاة والسلام.

كان إقبال يتفجع على موت المسلمين، وكان شعره قطعاً من نور وحمماً من براكين وقذائف من زلازل.

كان شعره يترنم به جيش الباكستان أول قيام دولة محمد علي جناح.

حتى إن له بعض المقطوعات ترجمت إلى الإنجليزية وترجمت للروسية، وله شعر بالعربي وشعر بالبشتو وبالفارسي والأردو، فهو شاعر على مستوى العالم.

ويقول وهو يتفجع على المسلمين وقد زار قرطبة فوقف أمام الجامع وما وجد المسلمين، ووجد المسجد قد حوِّل إلى حانات من الخمر والعياذ بالله، ووجد العاهرات وهن في محراب المسجد، فبكى وجلس عند الباب وأنشد قصيدته الفضفاضة الشهيرة في مسجد قرطبة فقال:

أرى التفكير أدركه خمول ... ولم تبقَ العزائم في اشتعال
وأصبح وعظكم من غير نور ... ولا سحر يطل من المقال
وعند الناس فلسفة وفكر ... ولكن أين تلقين الغزالي
وجلجلة الأذان بكل حيٍّ ... ولكن أين صوت من بلال
منائركم علت في كل ساح ... ومسجدكم من العُبَّاد خالِ

وأما قصيدة «إن الله اشترى» فهو يتكلَّم بها إلى العالم الإسلامي كله ويُخبر بأهل بيعة الرضوان رضوان الله عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

يقول في مقالة له نثرية: أتيت العرب فوجدتهم يتقاتلون، وأتيت إلى الأتراك فوجدتهم يصبغون بالبويات أطراف الزجاج، وأتيت إلى الهنود وإذا هم يبحثون عن الخبز في الأسواق، فما وجدت من يحمل لا إله إلا الله للعالم.

يعني: الكل مشغول بخبزه وبسيارته ووظيفته.

فقال:

نحن الذين استيقظت بأذانهم دنيا الخليقة من تهاويل الكرى
حتى هوت صور المعابد سُجّدًا بجلال من خلق الوجود وصوّرا
ومن الذين دكّوا بعزم أكفهم باب المدينة يوم غزوة خيبرا
أمّن رمى نار المجوس فأُطفئت وأبان وجه الصبح أبيض نيِّرا
ومن الذي باع الحياة رخيصة ورأى رضاك أعز شيء فاشترى

إنهم المسلمون، وهي من أبدع ما قاله في حياته.

أما قصيدته المشهورة لديكم والتي يعرفها غالبكم وهي (شكوى) فقد بدأها بقوله:

حديث الروح للأرواح يسري وتدركه القلوب بلا عناء
هتفت به فطار بلا جناح وشقّ أنينه صدر الفضاء
ومعدنه رخاميٌّ ولكن سرت في لفظه لغة السماء

هذا محمد إقبال في شكواه يتفجع على المسلمين ثم يقف على معالم إسبانيا بعد رحيل المسلمين من هناك، ويرى مساجدهم ويرى القرآن ويرى حلقات العلم قد عطِّلت، ويرى الفرنجة قد استولوا على معالم الدين هناك فيقول:

قد كان هذا الكون قبل وصولنا شؤماً لظالمه وللمظلوم
لما أطلَّ محمد زكت الرُّبا واهتز في البستان كل هشيم

هذا الروض يابس وصوّح نبته وماتت أعشابه وذوت أزهاره وماتت أطياره وجف معينه، فأطل محمد ﷺ فاهتز الروض واهتزت الأرض وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

لما أطلَّ محمد زكت الرُّبا واهتز في البستان كل هشيم

• محمد إقبال والحضارة الغربية:

هذا الرجل عرف الحضارة الغربية ودرسها، فهو يعرفها معرفة تامة.

يقول المودودي: كنا نعظ الناس ونحذرهم من الحضارة الغربية فما يستمعون إلينا لأننا ما سافرنا إلى الغرب، فلما أتى محمد إقبال يحذرهم من الحضارة الغربية أنصتوا إليه واستمعوا واتعظوا بما قال.

جلست مع شاب يتحدَّث عن أمريكا فقال: رأيت في مدينة (دلاس) عمارة طولها مائة وستة وخمسون دوراً.

وفي أمريكا أكثر من ألف مطار.

وفي أمريكا شوارع تحت الأرض ما يدري بها الذين فوق الأرض.

ونسي هذا وأمثاله أن الله يقول عنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]، ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٦].

لما تركوا منهج الله تاهوا في الحياة.

ولما انحرفوا عن لا إله إلا الله انتحر الكثير منهم، وتفصَّمت عُرى الأسر عندهم، وفشا الربا، وأصبحت المرأة سلعة رخيصة في المنتديات، وأصبح الشعب هائجاً مائجاً فارغاً، وأصبحت الآلة عندهم أغلى من الإنسان.

أما محمد إقبال فهو قد رأى ذلك كله، فعاد ينصح المسلمين والدعاة ويقول لأحدهم:

أنت كنز الدر والياقوت في ... لجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى ... صوتك العالي وإن لم يسمعوك

ليس في العالم إلا أنت، فلا يغرُّك هذا الضجيج والإعلام والفلسفة، لأن أذناب العلمنة الذين ولدوا في لوس أنجلوس ودرسوا في كاليفورنيا ولا يعرفون القرآن ولا زمزم ولا يتوضؤون، قد طمسوا عقول الناس وجعلوا الدين خرافة ورجعية، وعظموا حضارة أولئك الساقطة عما قريب.

ويقول: دخلتُ ألمانيا فأظلم قلبي، وانطفأت معالم الروح في نفسي، ونسيت حلاوة القرآن التي كنت أجدها في البنجاب، لأن الفتاة العاهرة تجلس بجانبي على كرسي الدراسة، وكأن الخمر على طاولتي «يعني زميله يضعها على ماصته».

ولمحمد إقبال قصيدة جميلة اسمها (فاطمة الزهراء) يعني بنت الرسول ﷺ.

يقول فيها:

هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟ ... مَنْذا يساوي في الأنام عُلاها
أما أبوها فهو أشرف مرسل ... جبريل بالتوحيد قد ربَّاها
وعليٌّ زوج لا تسل عنه سوى ... سيفاً غدا بيمينه تيَّاها

هذه فاطمة الزهراء قدَّمها للناس في تعريف بسيط.

أما أبوها فهو أكرم الناس.

وجبريل رباها بالتوحيد.

وعليٌّ زوج لا تسل عنه سوى السيف.

● فاروق مصر ومحمد إقبال:

مرَّ محمد إقبال في سفينة يريد أوربا، فتوقف بحفظ الله ورعايته في قناة السويس، فكتب رسالة من القناة إلى فاروق مصر لأنه كان حاكماً آنذاك.

فكتب له محمد إقبال رسالة صارخة لأن المصريين اشتكوا إلى محمد إقبال وقالوا: هذا ظالم اسمه فاروق لكنه يختلف عن عمر الفاروق.

فالفاروق عمر بأل التعريف، وهذا فاروق نكرة.

فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من إقبال إلى فاروق مصر: يا فاروق مصر إنك لن تكون كالفاروق عمر حتى تحمل دِرَّة عمر؛ والسلام»!!

أما الشاعر الشيرازي، فكان يؤمن ببعض القضايا الصوفية، ويرى أن الواعظ دوره أن لا يحرك الناس بل يعبد الله دون أن يكون له أي تأثير في العالم.

فلذلك كان إقبال يخالفه كثيراً.

لأن إقبالاً يريد للمسلمين جميعاً أن يخرجوا ويستيقظوا من سباتهم من المحيط إلى المحيط حيث لا تحصره زاوية معينة.

وهذا لا يعني أن الشيرازي لم يكن شاعراً مجيداً كما قلت سابقاً بل له مقطوعات عجيبة منها:

قال لي المحبوب لما زرته ... من ببابي؟ قلت بالباب أنا
قال لي أخطأت تعريف الهوى ... حينما فرقت فيه بيننا
ومضى عام فلما جئته ... أطرق الباب عليه موهنا
قال لي من أنت؟ قلت انظر فما ... ثم إلا أنت بالباب هنا
قال لي أحسنت تعريف الهوى ... وعرفت الحب فادخل يا أنا

وهذا من أحسن ما قيل في الشعر، وهي قصيدة جميلة.

لكن محمد إقبال يقول له: لا.. لا بد أن تخرج ببردتك وبعصاك لتغير العالم.

من كلمات محمد إقبال القوية ما قاله في بيان مشرق وترجم للعربية: كن تلميذاً لرجل صالح خبير، واهرب من نظام ديمقراطي، فإن مخ مائتي حمار لا تنتج مخ إنسان واحد.

يقول: بأن النظام الديمقراطي قد خدع المسلمين وفيه ثلاث سلبيات.

أول سلبية: أنه يجعلك حراً حتى فيما بينك وبين الله، فليس لأحد عليك ملكية ولا عبودية حتى الله، فهم يريدونك أن تتفسح من كل شيء، وهذا كفر وإلحاد.

الثانية: أن الديمقراطية تعتمد كثرة الأصوات، ولو كان المرشح لا يستحق الترشيح، وإنما كسب الأصوات لسبب من الأسباب كثرائه أو سمعته أو عائلته.

وهذا خطير جدًا حيث يعتلي الناس من لا يستأهل القيادة.

الثالثة: أنها ديمقراطية موهمة في نظره لا تحقق ما تسعى إليه من العدل والإنصاف كما هو مشاهد اليوم.

فهي ديمقراطية في الظاهر.

ويقول محمد إقبال: لقد حان قرب نهاية العالم القديم الذي حوّله المقامرون الغربيون إلى نادٍ للقمار.

يقول: حالاً نغير العالم هذا بعد أن أصبح عالماً للقمار، وعالماً للأغنية، وعالماً للتهتك، وعالماً للمرأة الضائعة، وعالماً لإشباع الغرائز.

ليس فيه من يدعو للفضيلة إلا القليل منهم.

ويقول: إن العلم إذا كان منحرفاً عن الفطرة السليمة ومزيفاً في أصله فهو عندنا أكبر حجاب وأعظم حرمان كالعلمانية واللادينية.

قلت: ولذلك ربط تعالى بين الإِيمان والعلم كثيراً في كتابه كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [الروم: ٥٦].

لأن العلم بلا إيمان كفر وإلحاد، كحال العلم المادي المجرد عن الإِيمان بل الذي يُستغل لحرب الإِيمان.

أخيراً: أنا أعلم أن لإقبال بعض الهفوات ولنا عليه ملاحظات، كإغراقه في الفلسفة وعدم معرفته لمنهج أهل السنة في العقائد وتفصيلها.

حيث إنه كان يتحدث عن عموميات الإِسلام دون أن يكون متوجهاً توجهاً سنياً سلفياً.

أنا أعلم ذلك كله.. ولكني أرى أننا أمام هذا:

لا ينبغي أن نطرح شعره الجميل الذي سمعتم وقرأتم شيئاً منه.

فهو قد بلغ الذروة فيه دون جدال، واستبان به صدق عاطفته تجاه الإِسلام وتجاه الرسول ﷺ.

فلعل الله أن يغفر له بهذا.

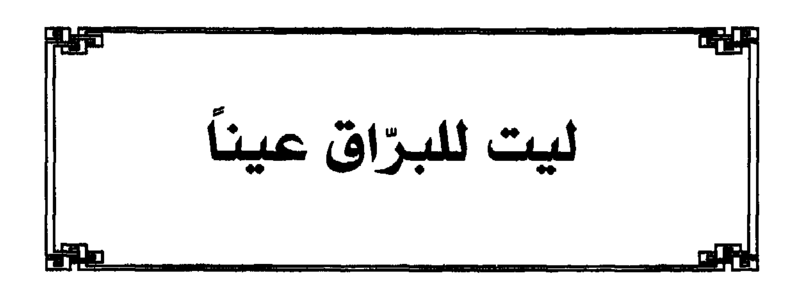
وينبغي علينا أن لا نعدَّ إقبالاً من العلماء الذين نصدر عن آرائهم في أمورنا.

لا.. بل هو شاعر مجيد أصاب وأخطأ.

فنأخذ منه روعة الشعر ولا نعتمده في عقائدنا أو توجهاتنا خاصة إذا ما خالفها.

وأتمنى لو تصدَّى أحد من الأدباء لدراسة شعره من جديد مع تقييد الملاحظات الشرعية على ما يرد فيه، ليكون مرجعاً للمسلمين وللأجيال في قادم الأيام.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.



ليت للبرّاق عيناً

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

لهذه الرسالة مغامرة فكريّة فائقة الأداء، رائعة العرض، بعنوان: «**ليت للبراق عيناً**».

مهمة هذا الكتاب الوصول إلى غور الوجدان، حيث مياه اليقين الدافئة.

فهو سلوة للمحرومين الذين انقطعت بهم الحبال، وخيّم عليهم اليأس، وضربوا بعصا الندم.

وهو عزاء للمنكوبين الذين ادلهمت عليهم ليالي الهموم، بكواكب بطيئة حائرة من الهم، واليأس، والفزع، واللوعة، وانعقدت عليهم سحب المصائب، فهم هناك وحدهم يبكون ويندبون ويجأرون.

وهذا الكتاب دفقة حب ثرٍّ سخيٍّ يسيل من مقلة ترمق هؤلاء وتراهم أبداً ودائماً في الأفق.

فهو رسالة لليتيم الباكي المتلفع بأسماله، حيث الهاجرة والجوع والإرجاف والضياع.

إلى الذين لا يملكون غذاءً، ولا كساءً، ولا ماءً، ولا دواءً. . أنثر الكلمات بين يديهم في طبق من الحياء، والخجل، أن تكون مشاركة المحب جملاً من كلام أو حروفاً من حديث.

ليت للبراق عيناً ترىٰ صرعى القضاء والقدر المحتوم من ربِّ العالمين وهم راضون صابرون محتسبون، يرون أن اختيار الله العظيم لهم خير من اختيارهم لأنفسهم، فهم أبداً في حلة التسليم والإِذعان والخضوع.

ليت للبراق عيناً ترىٰ المنكوبين من عباد الله المؤمنين يحتسبون الثواب، ويطلبون الأجر، ويفرحون بحطِّ الخطايا ونسف السيئات.

ليت للبراق عيناً ترىٰ أن في الأمة المحمديَّة المعطاءة الودودة الولودة أناساً كادوا أن يشابهوا الملائكة طهراً وعفافاً، اتخذ الله منهم شهداء، ضُرِبت جماجمهم في حومة الوغى وتدفقت دماؤهم في المعترك، وشهداء هناك حيث رفعت لهم المشانق ونصبت لهم الزنزانات والفلكات، ولسان الحال يقول لكل سفاك: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [طه: ٧٢].

ليت للبراق عيناً ترىٰ أشباه يحيى بن زكريا مذبوحين على الطريق في سبيل حب من يستحق كل الحب والشوق والود جلَّ اسمه.

وأحفاد عمر في المحاريب تُكسَر الرماح في ظهورهم، وهم راكعون ساجدون منيبون، يُمَزقون من أجل الكلمة وعلى حساب الميثاق وفي ذكرى العهد.

ليت للبراق عيناً ترىٰ آلاف القمصان تشبه قميص عثمان، كلها دماء هنا وهناك، وكل شهيد جاؤوا على قميصه بدم صدق.

الدم ثائر هادر يروي قصة فداء هؤلاء في سبيل المبدأ الطاهر، والمسيرة المقدسة، والمثل العليا الربانية.

ليت للبراق عيناً ترىٰ الصابرين على ألم الملح الجارف، وعلى اليأس المتلف، يترقبون أفق الظن الحسن وطالع الفأل وكتائب الفجر.

ليت للبراق عيناً ترىٰ علياً في محراب القداسة يثعب جبينه دماً زكيّاً فائحاً بطيب الشهادة، مسرعاً إلى الله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

ليت للبراق عيناً ترىٰ أحمد بن حنبل يُجْلَد فما أنَّ، ويضرب فما يصيح، ويحبس فلا ييئس.

فهو في هدوء الجبل الصامت، وفي رزانة الدهر الساكن، وفي ثبات القلعة الرابضة.

استعلاء على تفاهات الدنيا، وصعود إلى أوج الفضائل، وتصميم على حفظ المنهاج، وتوقُّد في ليل الأماني.

ليت للبراق عيناً ترىٰ خبيب بن عدي وآلافاً مثله وهو يُرْفع على خشبة الفناء.

فهتف الضمير الحي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا جلجلة الحق أكبر من زيف الباطل، وإذا اندفاع اليقين أعظم من زخم الزيف والكذب.

ليت للبراق عيناً ترىٰ العبد الصالح عبدالله بن عمرو الأنصاري يُقطَّع في جهاد أعداء ربه تقطيعاً، ويمزق تمزيقاً، فكان الجزاء: مكالمة حية بلا ترجمان مع الرحمٰن، وحديثاً خاصاً شائقاً مع ربِّ المغارب والمشارق.

لماذا...؟ لأنه صدق في موطن تسقط فيه الجماجم، وتقع فيه الأنفس، ويهرب منه الجبان، ويذعر من هوله الموت.

ليت للبراق عيناً ترىٰ أصحاب الحديث يحملون المحابر يجوبون الديار، ويقطعون القفار، ويركبون البحار.

يأكلهم الجوع، ويحسوهم الظمأ، ويلفُّهم الليل الرهيب، وتحرق مواضع سجودهم الرمضاء، ومع ذلك يواصلون العطاء، والبذل، والاستفادة، والتحصيل والنفع.

يطربون بكلمة حدَّثنا طرب الواله الواجد لنغمة حبيبه.

ويشتاقون لسماع كلام المعصوم اشتياق النوق الواردة لخمس ليالٍ على غدير صاف عذب رقراق.

ليت للبراق عيناً ترىٰ شيخنا ابن تيمية في القلعة وهو يُسَبِّح ربه ويهتف في زنزانات السجناء بكلمات التوحيد الملتهبة الرائعة المهيمنة.

محبوس كأنه في نزهة، مسجون كأنه في عرس، مقيد وكأنه رحالة على ضفاف نهر.

ابن تيمية إيمان يشق طريقه إلى سراديب النفوس، وعلم يغرق فيه أدعياء الحكمة والمتطفلون على التفقه والاستنباط. وهمّة تمر من السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء.

ليت للبراق عيناً ترىٰ ابن المبارك وهو يروي للعالم قصة العالم المجاهد الزاهد العابد المثابر المتواضع.

ابن المبارك المولىٰ الذي جعل الأحرار يتمنون ودّه، والسلاطين يخطبون لقاءه.

ابن المبارك الذي علّم الناس أن العالم كلية عالمية من المواهب والقدرات، وخصال حميدة كالأعياد في الدهر، وأخلاق جميلة كنجوم السماء، وترجمة لنصوص الوحي يقرؤها العالم والأميّ في شخص ناطق سميع بصير.

ليت للبراق عيناً ترىٰ عقبة بن نافع وهو يتحدَّى المحيط المتلاطم ويهدِّد البحر المتماوج، بتوحيده وبقلبه وبإبائه وبصموده: يا ماء، والله لو أعلم أن وراءك أرضاً لخضتك بفرسي هذا لأرفع لا إله إلا الله.

ليت للبراق عيناً ترىٰ مالك بن أنس إمام دار الهجرة وهو يعلِّم الحديث الشريف في الروضة الشريفة ستين سنة يلقن الحكمة، ويعلم الأمة الخير، ويحيي القلوب، ويقمع البدع، ويسخر الشياطين، ويرفع معالم السنن، وينشىء أجيالاً سنية سلفية أحمدية.

ليت للبراق عيناً ترىٰ سعيد بن المسيب إمام التابعين لم تفُته تكبيرة الإِحرام في جماعة ستين سنة، يُضرب مائة سوط لأنه لم يداهن ولم يراهن، بل سطع ولمع، يُضرب كما تضرب غرائب الإِبل لأن كيانه يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هُود: ٧٩].



الشعر في زمن النكبة

الحمد لله القائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

والصلاة والسلام على من قال فيه ربه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩]، فبذّ بفصاحته البلغاء، وأسكت بمنطقه الشعراء، وأفحم ببيانه العرب العرباء، وعلى آله وأصحابه اللُّسُن المفوّهين والكماة الباسلين.

أما بعد:

الأدب كلمة مؤثرة حية تبعث في الشعوب الحياة.

وقد عاشها رسول الهدى ﷺ، بنفسه متكلماً وسامعاً وخطيباً وفقيهاً ومفتياً.

ولكن قبل أن أتحدث عن الأدب الرفيع الذي عايش الأمة أُعرِّض بأدب رخيص، أدب مبتذل، وأدب ليس مقصوداً في الإسلام.

فنحن نعيش اليوم أدباً هو في مجموعه لا يحمل مبدءًا ولا يتعامل مع قضيتنا الكبرى ولا يتحمّس لرسالتنا الخالدة.

أدباً غلب عليه التذبذب وتبدُّل المواقف بحسب المنافع والأغراض والمصالح.

أدباً يسترضي الخواطر ويجامل على حساب الحق، فإذا قائله أول من يُكَذّبه ولا يؤمن به.

أدباً مجمركاً كتبت عليه الوصاية، يصف الزوارق البحرية في شواطىء اللهو والضياع، ويبكي على موت أرانب الصحراء، ويحدثنا عن بلقيس وتدمر والأمة تغرق في بحور الدماء، وتئنُّ تحت أسواط الجلادين، وتموت في الزنزانات، وتُحاصر بطوابير الملحدين المرتزقة.

أدباً نتيجته ميدالية ذهبية، أو سيارة فاخرة، أو كلمة شكر من الجنرال، أو ابتسامة من الممدوح.

أدباً أخرج أفراخ العلمنة أبرياء أمام الشعب، ونجوماً في وسائل الإِعلام، وأبطالاً في مسيرة الأمة.

وجعل الأَعلام خونة، والناصحين غششة، والأتقياء أهل خطورة.

ولو أني بليت بهاشميّ   خؤولته بنو عبد المدان
لهان عليّ ما ألقى ولكن   تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

أدباً طارد الجنس، وطلب الشهرة، وحرص على الظهور.

فأين أدبنا؟

وأين شعرنا؟

وأين إبداعنا؟

وأين طموحاتنا؟

نحن نريد أدباً جميلاً طموحاً عفيفاً.

أدباً يستفيد من روعة السبع المثاني والقرآن العظيم.

أدباً يلهب حماس الأمة فيوقظ الغافل، وينبه البليد، ويزجر العاصي.

أدباً يعيد لنا مجدنا، ويذكرنا تاريخنا، ويحمل مبادئنا.

أدباً يصلنا بالماضي، ويحثنا إلى المستقبل.

في ظلاله نعيش بظلال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

وفي أحيائه نحيا تحت أفياء لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أدب يزكي النفس من أوزارها ويرتل التوحيد في أذن الملا

لقد عاش رسولنا ﷺ الأدب بكل معاني هذه الكلمة فجاشت روحه ودمعت عينه وهفت نفسه مع الأدب.

في صحيح مسلم عن عمرو بن الشريد قال: ردفت رسول الله ﷺ فقال: **«أتحفظ لأمية بن أبي الصلت شعراً»**؟

عجيب! هل اتسعت حياتك الحافلة لتسمع الشعر؟

هل اتسعت أحداثك وأيامك يا رجل العالم لتسمع الأبيات؟

قال: قلت: نعم.

قال: **«أنشدني»**.

فأنشدته بيتاً.

قال: **«هيه»**.

فأنشدته ثانياً.

فما زال يقول: **«هيه»** حتى أنشدته مائة بيت[1].

---

(١) سبق تخريجه ص(٣١).

وقال ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه»[١]، أي أمية.

كان ﷺ يجيد الأدب.. فإذا تكلم بَذَّ الفصحاء.

وكان يقول: «أُعطيت جوامع الكلم»[٢]، فأخرج من الأمة الخام أمة الصحراء وأمة الأرانب وأمة الضب، أخرج منها أمة فريدة تكتب بسم الله في قرطبة، وتصلِّي في أشبيليا، وتسجد على ضفاف دجلة والفرات.

يقول الزبيري قاضي اليمن وهو يمدح بلاغة المصطفى ﷺ:

ما بنى جملة من اللفظ إلا وابتنى اللفظ أمة من عفاء

يقول: ما قال كلمة إلا أحيا بها جيلاً.

وما خطب خطبة إلا جهّز جيشاً.

وما أرسل عبارة إلا فتح مدينة.

فسيطر بهذا الأدب ﷺ على العقول وملك به الأفئدة.

وكان ﷺ يجعل من مسجده منتدىً أدبياً، ويقرِّب المنبر لحسان ويقول: «اهجهم وروح القدس معك»[٣].

ويسأل حسان بن ثابت: «كيف أنت والمشركين»؟

أي كيف بك إذا جمعنا مع المشركين صراع أدبي.

فأخرج حسان لسانه متحدياً وضرب به أرنبة أنفه وقال: لساني يا رسول الله، والله لو وضعته على حجر لفلقه، أو على شَعْر لحلقه.

فدعا له.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٢٧٢/٩)، وانظر: التمهيد لابن عبد البر (٧/٤)، وفتح الباري لابن حجر (١٥٤/٧)، والإصابة (٢٥١/١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٩٧٧)، ومسلم برقم (٥٢٣)، وأحمد برقم (٧٥٧٦)، وغيرهم.

(٣) سبق تخريجه ص(٦١).

فأرسل القوافي كالقنابل وأرسل الأبيات كالسهام.

يقول رضي الله عنه قبل غزوة الفتح مهدداً الشرك والوثنية والإِلحاد والزندقة.

عدمنا خيلنا إن لم تروها   تثير النقع موعدها كداء

يقول: نسأل الله ألا يعيد هذه الخيول إلى بيوتنا إن لم نصفّ الحساب معكم، وإن لم نعلن نتيجة النصر مع الباطل.

تظل جيادنا متمطرات   تلطمهن بالخُمُر النساء

فيدخل ﷺ عام الفتح منتصراً، ويسأل أبا بكر النَّسَّابة الحافظ للشعر وهو يرى خيول خالد قد انصبت من كداء مكة ونساء مكة يخرجن بالخُمُر يلطمن الخيل، فيتبسم ﷺ لتحقق قول حسان ويقول: **«يا أبا بكر كيف يقول حسان»**[1]؟

فيعيد عليه الأبيات ويسمع القائد العظيم أبيات الحماسة والصدق والنبل فيتأثر بها.

ويشهد الرسول ﷺ بدراً وينتصر انتصاراً رائعاً سجَّله التاريخ.

فيأتي حسان ويشارك فيقول للحارث بن هشام الذي فرّ من المعركة وهو أخو أبي جهل:

إن كنتِ كاذبة الذي حدثتني   فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم   ونجا بفضل طِمِرَّة ولجام

يقول للمحبوبة: إن كنت كاذبة فأنجاك الله عزَّ وجل كما أنجى الحارث بن هشام الذي ترك الأبطال في بدر وفر.

فوقعت هذه الأبيات وقع السيف على قلب الحارث رضي الله عنه

(١) سبق تخريجه ص(٨٢).

لأنه قد أسلم وخرج إلى اليرموك ليبيع دمه، وليطهر أوزاره من هذه الأبيات، وليكتب في سجل الخالدين.

وتوفي ﷺ وترك لنا شعراء ثلاثة، هم: ابن رواحة وكعب بن زهير وحسّان.

يقول تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢١].

هل نخبركم بالدجاجلة؟

هل نخبركم بالمرتزقة المنافقين؟

هل نخبركم بباعة المبادىء؟

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٢] الذي لا يحمل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتِحَة: ٥].

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٣]، أي: يتشدّقون عند الكيانات وأمام الأشخاص، فيمدح أحدهم من ذم أمس ويذم من مدح بالأمس.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤-٢٢٦]، فأتى الشعراء الثلاثة إلى المصطفى ﷺ يبكون ويقولون: يا رسول الله نحن الشعراء وأنزل الله فينا ما تعلم.

فنزل جبريل بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧] بلا إله إلا الله وتوضؤوا ودخلوا المسجد وحملوا المصحف وأيّدوا الرسالة التي أتى بها ﷺ، وتطهروا من أوزار التخلف والحزبية للباطل والركوع للآثم الفاجر.

ويتولى أبو بكر الخلافة فيجعل للأدب المؤمن في حياته جزءاً كبيراً، بل هو نفسه من مواصفاته ومن مؤهلاته أنه كان خطيباً نسَّابة أديباً.

في اليوم الأول لوفاته ﷺ عُقد مجلس في دار بني ساعدة للأنصار.

فكاد هذا المجلس أن يتحول إلى كارثة على الأمة، فتحرك أبو بكر وعمر وأبو عبيدة في الوقت المناسب لإنقاذ الموقف.

فقال لهم أبو بكر: يا معشر الأنصار، آويتم وواسيتم ونصرتم وأكرمتم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء، والله ما مثلنا ومثلكم أيها الأنصار إلا كما قال طفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حيث أشرفت ... بنا نعلنا في الشارفين فزلتِ
هم خالطونا بالنفوس وألجؤوا ... إلى غرفات أدفأت وأظلتِ
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملتِ

فتهلَّلت وجوههم وانشرحت صدورهم، فقاموا فبايعوه رضي الله عن الجميع.

إن الكلمة المؤثرة المؤمنة الصادقة تغيّر أفكار الشعب وتوجه طاقات الأمم.

ويتولى عمر الخلافة فلا يبتسم لأنه صارم ولأن الشيطان يسلك فجّاً وعمر يسلك فجاً آخر، ولأن الأعداء تهاب عمر، ولأن الأكاسرة والقياصرة على منابرهم وفي دواوينهم يهتزون من سمعة عمر وهو في المدينة كما يقول محمود غنيم:

يا من يرى عمراً تكسوه بُردته ... والزيت أُدْم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيّه فرقاً ... من خوفه وملوك الروم تخشاه

أرسل عمر رضي الله عنه وأرضاه النعمان بن عدي أميراً على ميسان وهي قرية تقع قريباً من البصرة.

فتولى الإمرة وكان صحابياً لكنه يحب الشعر والأدب.

فجلس يوماً مع أصحابه في سمر فقال مازحاً:

فمن مبلغ الحسناء أن حليلها ... بميسان يُسقى من زجاج وحنتم
إذا كنت ندماني فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلّم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

أي من يُبلغ الجميلة في المدينة أنه تطور بي الحال (بعد ثورة ١٤ سبتمبر!!) فأصبحت أميراً بعد أن كنت أنام على الرصيف.

وبعد أن كنت أشرب الماء لوحده أصبحت أشرب الخمر! ولا أشربه إلا في الحنتم والزجاج.

ولم يفعل ولم يشرب الخمر، وما كان له أن يشرب الخمر وقد آمن بالله، وما كان له أن يشرب المسكر وقد عاهد الله وباع نفسه من الله.

فوصلت الأبيات عن طريق (الاستخبارات!!) إلى عمر، فقرأ عمر رضي الله عنه وأرضاه الخبر فاستدعى أميره في الحال لأن عمر ليس صاحب هذا التساهل والدوران حول الحمى.

فقال للأمير: ما هذه الأبيات التي سمعت؟ والله لقد ساءني ما صنعت فلا بد من الحدِّ في ظهرك.

فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ، والله ما شربت الخمر وإنما قال الله عزَّ وجل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].

قال عمر: أما الحد فقد أسقطته عنك بهذه الآية، ولكن والله لا تلي لي عملاً، ثم عزله.

● وتمرُّ النكبات على الأمة بعد الخلافة الراشدة فيكون للشعر دور فيها.

فيستشير المعتصم المنجِّمين في فتح عمورية أثناء حربه مع الروم.

فقال المنجمون: احذر! لقد نزل نجم العقرب في كوكب الذنب فلا نصر في هذه الفترة.

فقال: آمنت بالله وكفرت بكم.

ثم جَهَّزَ جيشاً عرمرماً.

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

وتوجه على بركة الله ودكدك بلاد الروم وانتصر عليهم ومزّق ديارهم.

وعاد ليسمع ماذا يقول شاعر الإسلام أبو تمام الذي سجّل فتح عمورية بأبدع ما يقال.

فقال أبو تمام:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدِّه الحدُّ بين الجد واللعب

ثم ضحك على المنجمين وعلى الكهنة وقال: أين فتواكم الرخيصة؟ أين العمالة؟ أين الكذب على الله وعلى الدين وعلى الرسالة؟

أما انتصر المعتصم؟

أما ذبح الأبطال؟

أما مزق أديم الكماة؟

يقول:

فالنصر في شهب الأرماح لامعة   بين الخميسين لا في السبعة الشهب
رمى بك الله جنبيها فَحَطّمها   ولو رمى بك غير الله لم يصب

فالله هو الذي رمى بك لأنك عبد لله. فما كنت بعثياً ولا علمانياً ولا ناصرياً ولا ماركسياً، وإنما كنت حنيفاً مسلماً ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

ثم أثنى عليه بالإيمان فقال:

تدبير معتصم بالله منتقم   لله مرتقب لله محتسب

فيشكره المعتصم ويسجل الإسلام لأبي تمام قصيدته الرائعة الإسلامية البديعة التي حملت روح الإسلام.

إننا بحاجة إلى أدب ينشد مبادئنا في النكبات، ويمسح جراحنا ويكفكف دموعنا ويقيلنا من العثرة.

ولسنا بحاجة إلى أدب يصف القائد ولا سيارته ولا شارته ولا طابوره، ولا يتهجّم تهجم الحطيئة على أعدائه، لأن هذا الأدب سوف يموت.

● وتستمر القافلة وتأتي نكبات لنا وعلينا، ويأتي أبو الطيب المتنبي شاعر الدنيا، ولولا أبو الطيب المتنبي لما ذكر سيف الدولة.

فيقف مع سيف الدولة في الوغى ويحشد معه الجيوش ويسخر لسانه ليكون بوقاً له في المعارك.

يقول للقائد:

تمرُّ بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضّاح وثغرك باسم

من يضحك إلا أنت في المعمعة؟

من الذي يبتسم والسيوف تقصف الرؤوس إلا أنت؟

وما كنت قرناً هازماً لقرينه ولكنه التوحيد للكفر هازم

فأنت ما قتلت رجلاً واحداً ولكنك انتصرت للمبادىء ولللا إلٰه إلا الله.

والمتنبي على الملاحظات الشرعية التي على شعره إلا أنه كان يُبكي عيون الناس.

يقولون: غضب الصاحب بن عباد على المتنبي لأنه لم يمدحه فقال للشعراء: والله لا ينشدني أحد شعراً لأبي الطيب إلا قتلته.

فماتت أخت ابن عباد فأتته ستون رسالة مصدَّرة ببيتين لأبي الطيب المتنبي يقول فيها:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه كذباً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فقال: لمن هذا؟

قالوا: لأبي الطيب.

قال: هذا كالشمس قد انتشر.. انْشدوا شعره، أو كما قال.

فالمبادىء الإيمانية ـ أيها الإخوة ـ ترتفع بالأدب.

ولا أدب لنا إذا لم يكن فيه خدمة لمبادئنا.

● وتسقط الأندلس ونصاب بنكبة.. فقلوبنا هناك ودموعنا وأسرارنا وتاريخنا.

لقد دفنّا علماءنا في الأندلس وتركنا تاريخنا وليالينا وسمرنا وقمرنا ونجومنا.

ودفنا أشجاننا وعتابنا هناك ثم عدنا بلا مصير.

يا ليلة الجزع هلا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الدِّيَم

عسى الله أن يعيدنا إلى تلك الدنيا.

فيبكي العالم الإسلامي سقوط الأندلس، ولكن بكاءهم مقصر في جانب بكاء أبي البقاء الرندي، فاسمع إليه وهو يستفتح قصيدته باكياً متأثراً صارخاً من ألم النكبة التي عاشها الأطفال والنساء والكيان والدعاة والعلماء.

لكل شيء إذا ما تمَّ نقصان فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان
لماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

فعسى الله أن يعيد تلك الأرض ثانية.

● من منكم لا يعرف بغداد؟

بغداد الحب والجمال والطموح.

بغداد؛ أحمد بن حنبل والشافعي وابن الجوزي والجيلاني.

بغداد؛ المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم.

بغداد؛ أبي تمام والبحتري وأبي العتاهية.

لقد أصيبت بغداد بنكبة التتار يوم انحرف أهلها في مرحلة من المراحل عن الصلاة، وعن إقامة الإيمان، وعن لا إله إلا الله، وعن التحاكم إلى شرع الله، فأصبح العلماء في الطابور السادس ، وأصبح أهل الفكر وأهل الأقلام هم الأوباش والجواري وباعة القيم والرخصاء، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

فيبكي الناس، ويقوم شاعر فيخاطب بغداد وهي أطلال والدماء تسيل، والأطفال تحت سنابك الخيل تداس، وكتب دار الحكمة تُرمى في نهر دجلة فيقول:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين   ألست كنت زماناً قرة العين
أستودع الله قوماً ما ذكرتهم   إلا تحدر ماء العين من عيني

إنه الأدب الذي يتقطع لوعة وحسرة. وهو الأدب الذي نفقده يوم أصبح الكلام بغير حماس وبغير إحساس.

يخرج لكن من اللسان لا من القلب.

● ومن النكبات المدلهمة أيها البررة موت العظماء وقتل النبلاء.

يقول ابن جرير:

والناس ألف منهم كواحد   وواحد كالألف إن أمرٌ عَنَا

فموت بعض الناس موت للأمة، وموت أمة لا يساوي موت واحد.

وأعظم العلماء محمد ﷺ، وأكبر الزعماء وإنسان عين الدنيا رسولنا وحبيبنا ﷺ، فهو ينتقل إلى الله لكن مبادئه لم تنتقل.

يقول شوقي:

المصلحون أصابع جمعت يداً   هي أنت بل أنت اليد البيضاء

يقول البردوني أعمى القلب وأعمى البصر ولا زال حياً، لكن ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

يقول في قصيدة يحيي فيها رسول الهدى ﷺ، قصيدة تُبكي العيون وتثير في القلب شجوناً الله أعلم بها.

بشرى من الغيب ألقت في فم الغار وحياً وأفضت إلى الدنيا بأسرار
بشرى النبوة طافت كالشذى سحراً وأعلنت في الدنا ميلاد أنوار

ثم يقول في آخرها:

نحن اليمانين يا طه تطير بنا إلى روابي العلا أرواح أنصار
أنا ابن أنصارك الغرِّ الألى سحقوا جيش الطغاة بجيش منك جرار
إذا تذكرتَ عماراً وسيرته فافخر بنا إننا أحفاد عمار

إنها قصيدة بديعة جزلة مؤثرة، لكن ربما يخرج الورد من الشوك.

لقد مات ﷺ فكأن الأمة ماتت يوم موته.

لعمرك ما الرزية فَقْدُ مال ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية موت شهم يموت بموته بشر كثير

وأما عمر فقد رثاه أحد الشعراء بقوله:

جزى الله خيراً من إمام وباركت يدُ الله في ذاك الأديم الممزق

● وأما محمد بن حميد الطوسي فهو بطل ما جاوز السادسة والثلاثين من عمره، قاتل في عهد المعتصم وكان قائد الجيوش.

التقى يوماً مع الروم فقاتل من بعد الفجر إلى صلاة المغرب.

يقولون: كان يأخذ السيف فيقاتل به حتى ينكسر السيف وتلمع شظاياه من على رؤوس الأبطال، فيأخذ السيف الآخر، ومع الغروب فتر، فاجتمع عليه الكماة فقتلوه.

فأتى أبو تمام ليشارك في المصيبة فسجّل قصيدة مبكية في محمد بن حميد الطوسي، ولما سمعها المعتصم قال: والله ما مات من قيلت فيه هذه القصيدة.

يقول أبو تمام:

كذا فليجلَّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
ثوى طاهر الأردان لم تبقَ بقعة غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
تردَّى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
عليك سلام الله وقفاً فإنني رأيت الكريم الحرَّ ليس له عمر

● أتى وفد غطفان إلى عمر فقال: أمنكم أحد من أبناء هرم بن سنان الذي مدحه زهير؟

قال رجل منهم: أنا يا أمير المؤمنين.

قال: ماذا قال فيكم زهير وماذا أعطيتموه؟

قال الابن: مَدَحنا فأعطيناه مالاً.

قال عمر: ذهب والله ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.

قال زهير في هرم:

قوم أبوهم سنان حين تنذبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يُقْعد فوق الشمس من كرم قوم بآبائهم أو مجدهم قعدوا
محسّدون على ما كان من نعم لا ينزع الله منهم ما لهم حسدوا

إلى آخر ما قال، فهذا هو الخلود، ولذلك لا زلنا نتناشدها إلى اليوم وتحيا معنا.

أما أدب (أنا ذبابة الليمون... أطير من شجرة إلى شجرة!) وأدب (سيارتي مازدا سبور.. أنت سيارتي.. عشت في رحلة في روابي الخليج..) وأدب:

يـا ونـة ونـيـتـهـا يـوم ونـيـت ونـة غـراب طـاردن لـه حـمـامـه!!

فهذا الأدب السخيف لا يدوم أياماً فضلاً عن الأعوام.

● ابن بقية وزير عباسي أطعم الناس وكسا العلماء، فحسده عضد الدولة لأنه أخذ عليه الاسم والصيت، فأصبح رمزاً دائماً للصحف الصباحية! فهي لا تحيي إلا ابن بقية في عهد العباسيين وتركت السلطان عضد الدولة.

فدبر عضد الدولة كارثة للوزير حتى قتله واغتاله.

ففوجئت الأمة بهذا الوزير الباذل وإذا هو مصلوب عند باب الطاق في بغداد.

فأتى أبو الحسن الأنباري أحد العلماء والأدباء العاشقين لابن بقية فقال وهو ينظر إلى الجثمان:

عـلوٌّ فـي الـحـيـاة وفـي الـمـمـات بـحـق أنـت إحـدى الـمـعـجـزات

فأنت دائماً تحب الخلود والعلو في حياتك وفي موتك.

عـلوٌّ فـي الـحـيـاة وفـي الـمـمـات بـحـق أنـت إحـدى الـمـعـجـزات
كـأن الـنـاس حـولـك حـيـن قـامـوا وفـــود نـــداك أيـــام الـــصـــلات

فالناس الذين حول الجذع والجثمان كأنهم يمدون أيديهم لك لتعطيهم المال كما كانوا يمدونها في الدنيا.

كـأنـك واقـف فـيـهـم خـطـيـبـاً وهـم وقـفـوا قـيـامـاً لـلـصـلاة
مـددت يـديـك نـحـوهـم احـتـفـاء كـمـدِّهـمـا إلـيـهـم بـالـهـبـات
ولـمـا ضـاق بـطـن الأرض عـن أن يـواروا فـيـه تـلـك الـمـكـرمـات
أصـاروا الـجـو قـبـرك واسـتـعـاضـوا عـلـيـك الـيـوم صـوت الـنـائـحـات

يقول: ضاقت الأرض أن تواري مكارمك ولموعك وسطوعك وكرمك فجعلوك في الجو.

فالشعر يستطيع بجماله أن يقلب المفاهيم.

ونحن لا نريد قلب المفاهيم، ولكن نريد تحبيب الناس للحق ونصرته.

● أصابت مصر هزة أرضية بسبب الذنوب والخطايا.

فخاف السلطان في ذاك العهد وأراد أن يتوب فدخل عليه شاعر أفاك وقال له:

ما زلزلت مصر من كيد ألم بها لكنها رقصت من عدلكم طربا

يا سلام على الخيبة! وعلى قلة الأدب.

فاستمر السلطان في طغيانه بسبب هذا الأفاك الأثيم.

ويقول ابن هانيء شاعر الأندلس لخليفة آخر:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فعلّمه الله من هو الواحد القهار، فأصابه بمرض عُضال حتى كان يتقلب على فراشه ويقول:

أبعين مفتقر إليك نظرت لي فأهنتني وقذفتني من حالقي
لستَ الملوم أنا الملوم لأنني علقت آمالي بغير الخالق

فنحن لا نريد الأدب الذي يجعل من السفاك حليماً وحكيماً، ومن المجرم عبقرياً فاتحاً.

● ويُنْكَب ابن عباد سلطان الأندلس عندما غلب عليه الترف وغلب عليه الانحراف عن الجادة، فكثرت الجواري في بيته والدفوف والطنابير والعزف وسماع الغناء والكأس بعد الثانية ليلاً، فأراد الله أن يؤدّبه.

فاستغاث يوماً بابن تاشفين وهو سلطان المغرب على أعدائه الروم في الأندلس.

فعبر ابن تاشفين البحر ونصر ابن عباد.

فأنزله ابن عباد في الحدائق والقصور والدور ورحّب به وأكرمه.

وكان ابن تاشفين كالأسد ينظر في مداخل المدينة وفي مخارجها لأن في نفسه شيئاً.

وبعد ثلاثة أيام هجم ابن تاشفين بجنوده على المملكة الضعيفة وأسر ابن عباد وقيده وسلب ملكه وأخذ دوره ودمّر قصوره وعاث في حدائقه ونقله إلى بلدة أغمات أسيراً، وهكذا يفعل الزمن دائماً ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٥].

فتقلّد ابن تاشفين زمام الحكم وادّعى أن أهل الأندلس هم الذين استدعوه وأرادوه.

ومرت الأيام وإذا ببنات ابن عباد يصلنه في السجن حافيات باكيات كسيفات جائعات، فلما رآهن بكى عند الباب وقال:

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسروراً ... فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

ثم دخل الشاعر ابن اللبانة على ابن عباد فقال له:

تنشّق رياحين السلام فإنما ... أصبُّ بها مسكاً عليك وحنتما
وقل لي مجازاً إن عدمت حقيقة ... بأنك في نعمة فقد كنت منعّما
بكاك الحيا والريح شقت جيوبها ... عليك وتاه الرعد باسمك معلما

وهي قصيدة بديعة أوردها الذهبي ومدحها.

● روى الترمذي عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها وأرضاها أنها مرت بقبر أخيها عبدالله الذي دفن في مكة فسلّمت عليه وقالت: يا عبدالله ما مثلي ومثلك إلا كما قال متمِّم:

وكنا كندماني جذيمة برهة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا ... أصاب المنايا رهط كسرى وتُبَّعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ثم بكت وودعته.

وكان عمر رضي الله عنه يقول لمتمم بن نويرة: يا متمِّم، والذي نفسي بيده لوددت أني شاعر فأرثي أخي زيداً. والله ما هبَّت الصبا من نجد إلا جاءتني بريح زيد، يا متمم إن زيداً أسلم قبلي وهاجر وقُتِل قبلي، ثم يبكي عمر.

يقول متمم:

لعمري لقد لام الحبيب على البكا ... حبيبي لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيته ... لقبرٍ ثوى بين اللوا فالدكادك
فقلت له: إن الشجى يبعث الشجى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

فهذا أدبٌ حي لا زلنا الآن بعد خمسة عشر قرناً نعيش معه ونتأثر به ونتوِّج به خطبنا وأمسياتنا ونوادينا.

أما شعر الإسمنت ودرجات الحرارة والصيدليات المناوبة! وشعر البطيخ! والكوسة والأسعار والمحيطات والجغرافيا والعواصم، فإنه يموت سريعاً.

حتى أنك إذا رأيت مطلع قصائدهم قلت: أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق!!

● نُكب بنو الأحمر في الأندلس فجاء الشاعر ابن عيذون يعزيهم في هذه المصيبة فقال:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر

إلى آخر ما قال، وقد شرحها كثير من الأئمة والعلماء.

فذكَّرهم بالله في آخر القصيدة، وهذا هو الفارق بين الشاعر الملتزم المؤمن والشاعر المجرم المنحرف.

● ومن أعظم النكبات في التاريخ: نكبة البرامكة الذين قيلت فيهم قصائد أظنها تربو على العشرين.

أُدخل يحيى بن خالد البرمكي السجن فمكث فيه سبع سنوات لا يرى الشمس، وقُتِل أبناؤه جميعاً.

فدخل عليه أحد الناس فقال: ما هذا؟ أبعد النعيم تكون في هذه الحال؟

قال: دعوة مظلوم سرت في ظلام الليل غفلنا عنها وما غفل الله عنها.

لا إله إلا الله! عرف الحق.

سجن الرشيد أبا العتاهية الشاعر فأرسل له قصيدة يقول فيها:

أما والله إن الظلم شؤم وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الحشر نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

فبكى وأطلقه ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢].

قيل لعلي بن أبي طالب: كم بين العرش والتراب؟

قال: دعوة مستجابة.

● وينكب المسلمون في فلسطين نكبة دامية ما سمع التاريخ بمثلها، ولا زلنا الآن بعد أربعين سنة نعيش النكبة وسوف تستمر إلى أن يأذن الله بالنصر.

ومعاملات فلسطين في هيئة الأمم لا يحملها ثلاثة حمير!!

يقول نزار قباني وهو مثل البردوني في قبح المنهج لكن ربما نجد الجوهرة في المزبلة!

يقول:

نساء فلسطين تكحَّلن بالأسى ... وفي بيت لحم قاصرات وقصّرُ
وليمون يافا يابس في حقوله ... وهل شجر في قبضة الظلم يثمرُ
رفيق صلاح الدين هل لك عودة ... فإن جيوش الروم تنهى وتأمرُ
رفاقك في الأغوار شدوا سروجهم ... وجيشك في حطين صلُّوا وكبَّروا
تُغني بك الدنيا كأنك طارق ... على بركات الله يرسو ويبحرُ
تناديك من شوق مآذن مكة ... وتبكيك بدر يا حبيبي وخيبرُ
تعالى إلينا فالمروءات أقفرت ... وموطن آبائي زجاج مكسرُ
يطاردنا كالموت ألف خليفة ... ففي الشرق هولاكو وفي الغرب قيصر

لقد أبدع ولكننا لا نقبله لأنه يعيش بلا مبدأ ولا إيمان ولا يعرف المسجد، فهو زنديق عدو لله ولرسوله وللمؤمنين، فلذا نمقته ونُشْهد الله على بغضه، ونسأل الله أن ينصفنا ورسالتنا ورسولنا وقرآننا منه.

يقول في مقطوعة أخرى له:

دمشق يا كنز أحلامي ومروحتي ... أشكو العروبة أم أشكو لك العربا
أدمت سياط حزيران ظهورهم ... فقبَّلوها وباسوا كفّ من ضربا
وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا ... متى البنادق كانت تسكن الكتبا

ويقول العشماوي في أطفال الحجارة:

طفل صغير والمدافع حوله ... مبهورة والغاصبون تبرموا
في كفِّه حجر وتحت حذائه ... حجر ووجه عدوِّه متورم
من أنت يا هذا ودحرج نظرة ... نحوي لها معنى وراح يتمتم
أنا من ربوع القدس طفل فارس ... أنا مؤمن بمبادىء أنا مسلم
سكت الرصاص فيا حجارة حدِّثي ... أن العقيدة قوة لا تهزم

إلى آخر ما قال.

● وتُنكب الكويت ويَدخل صدَّام ويتمزق الأطفال وتُسحق الشريعة ويُكفر بالله ويتجمع العالم فيندِّد به.

فقام كثير من الشعراء الذين زكّوه بالأمس ومدحوه وأثنوا عليه ونادوه بيا فاتح الدنيا ويا رمز النصر ويا إله الخلود.

وكانت شاعرة مشهورة تناديه بيا إله المجد! وكانت تقول للآخرين:

سكارى يصيدون الحبارى

وكان كثير منهم يبوس كف المجرم، وقد علموا أنه قتل الأكراد أحفاد صلاح الدين وأنه عادى الإسلام والمسلمين.

فانقلبوا الآن يذمونه ويندِّدون به!

أليس شاعره البعثي هو القائل:

هبوا لي ديناً يجعل العرب ملة ... وسيروا بجثماني على دين برهم
ألا يا هلا كفراً يؤلف بيننا ... وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم
بلادك قدِّمها على كل ملة ... ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم

وعلم البعث الذي كانت تمضي به الطوابير يقول:

آمنت بالبعث رباً لا شريك له ... وبالعروبة ديناً ما له ثانِ

الآن اكتشفنا أن صدام كان مجرماً؟

حتى يقول شاعر منهم:

عجباً كيف اتخذناك صديقاً وحسبناك أخاً براً شفيقا

كيف نتخذه صديقاً؟

ألم يكن كافراً قبل الغزو؟

أما داس المصحف؟

أما قتل الأبرياء؟

لماذا تذبذبنا في المواقف؟

يقول الشاعر المسلم الآن قالوا: حدودنا هي إقليمنا فقط، وأما غيرها من البلاد فليست لنا.

ونقول: لا.. بل بغداد لنا، بغداد المعتصم وأحمد والمتوكل، والكويت لنا وطشقند لنا وقرطبة لنا.

وأينما ذكر اسم الله في بلد عددت ذاك الحمى من صلب أوطاني
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط جيراني

ويقول آخر:

بلادي كل أرض ضجَّ فيها نداء الحقد وضاحاً مبينا

وقلت في قصيدة لي أتحدث فيها عن أوضاع الأمة وعن ماضيها:

صوت من الغور أم نور من الغار أم ومضة الفكر أم تاريخ أسرار
يا عيد عمري ويا فخري ويا أملي ويا محبة أعمار وأقطار
تطوي الدياجير مثل الفجر في ألق تروي الفيافي كمثل السلسل الجاري
الشمس والبدر في كفَّيك لو نزلت ما أطفأت فيك ضوء النور والنار
أنت اليتيم ولكن فيك ملحمة يذوب في ساحها مليون جبار

فما لقومي بلا وعي قد انتكسوا ... أصغوا لصيحات عربيد وخمار

ما جاءهم من صلاح الدين موعظة ... فما انجلت عن سماهم وصمة العار

هم الأسود ولكن في حظائرهم ... هم الثعالب عند الفاتك الضاري

لهم لموع ولكن لا شموس لهم ... لهم سلاح ولكن غير بتار

جمع الطوابع من أسمى هوايتهم ... أعلى مفاخرهم من يوم ذي قار

الشاربون دماء الجيل في دعة ... الراقصون على ناي وأوتار

الساهرون على كأس وأغنية ... العاكفون على طبل وقيثار

هل حرَّروا القدس من صهيون أو حضروا ... يوم الوغى وارتدوا أسياف أحرار

هل طهَّروا المسجد الأقصى وهل طهرت ... أكفهم ويحهم ليسوا بأطهار

هل أعلنوا الحرب إسلاماً وتضحية ... هل واصلوا سير سلمان وعمار

تبرأتْ منهم الأجيال وانسحبت ... جيوشهم وعليها وصمة العار

وطاردتهم جيوش البغي فانحسروا ... يروون ملحمة للقط والفار

تبكي المنائر منهم كلما هتفوا ... لأن في يدهم سكين جزار

عروبة ليس للإسلام في دمها ... نور وليس عليها فطرة الباري

عروبة برئت منها جحافلنا ... ما لم تتوج بإيمان وأذكار

أروي حياة رسول الله أبعثها ... شذًا تفوح بآمال وأزهار

يخشى إعادتها لص ويحذرها ... نذل تربَّى على أنغام غدَّار

لأن مجد رسول الله تذكرة ... على جبين العلا كالكوكب الساري

يغرد المجد في بستان شرعته ... في هيبة النور لا تغريد أطيار

أصحابه عبروا التاريخ وانتصروا ... وحدَّثوا طلعة الدنيا بأسرار

في قندهار دماء من عروقهم ... تكفي طموحاً لمهزوم ومنهار

سل نخل بَيْسان والحمراء ما فعلوا ... اقرأ مكارمهم يا أيها القاري

ثم اكتفينا بآمال وفلسفة ... ليل العجائز أو أخبار سمار

فن الهزيمة سهل كم تعلمه ... جيش الموسيقى بطبلات وأزيار

أبكي وأضحك من أفعال صبوتهم ... يا ألف صدام بل يا ألف عمار

شادوا الدنانير هالات مزخرفة جَمّاعها لا يساوي ربع دينار
يبيع قيمته بالرخص من سفهٍ والدين ينهار منه في شفاً هار

وهذه الأزمة التي حلّت بالكويت ـ أيها الأحبة ـ تعطينا درساً بليغاً عن تغير الحال وتنقله من عند المولى سبحانه.

يا راقد الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

يقول عبدالله بن المبارك الزاهد العابد الولي أمير المؤمنين في الحديث: لقصيدة عدي بن زيد خير عندي من قصر طاهر بن حسين.

وطاهر بن حسين أمير عباسي كان في الشمال في خراسان له قصر عجيب، لكن هذه القصيدة التي قالها عدي بن زيد والتي ذكرها ابن كثير وابن خلكان وأثنوا عليها ثناءً حسناً هي أروع من ذاك القصر.

يقول:

أيها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور
أين كسرى الملوك أنوشروان أم أين قبله شابور

عدي بن زيد هذا شاعر جاهلي ما كان يشرب الخمر.

نزل يوماً مع النعمان بن المنذر تحت شجرة فقال: أبيت اللعنة هل تسمح لي بالكلام؟

قال: تكلَّم.

قال: هل تدري ماذا تقول هذه الشجرة أيها الملك؟

قال: لا أدري.

قال: تقول:

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا ... يخلطون الماء بالخمر الزلال
قد مضوا حيناً وصاروا زمناً ... ثم صاروا جثثاً تحت الرمال

فبكى النعمان ورفع الخمر.

يقول: يا نعمان لا تضيع حياتك في الخمر، فهذه الشجرة تخبرك بأن قبلك ملوكاً سكنوا هنا وجلسوا هنا وضحكوا وشربوا لكن ذهبوا فانتبه.

يقول صاحب كليلة ودمنة: أرسل الأسد الحيوانات تجمع له صيداً.

فذهبت تصطاد فأتت له بغزال وأرنب وظبي.

فقال: من يقسم بيننا؟

فقال الذئب: أنا.

قال: تفضل.

قال: أما الأرنب فللثعلب، وأما الظبي فلي، وأما الغزال فلك.

فغضب الأسد ومدَّ ذراعه فخلع رأس الذئب فإذا هو ميت.

فقال: من يقسم؟

قال الثعلب: أنا.

قال: تفضل.

قال: أما الأرنب ففطورك، وأما الظبي فغداؤك، وأما الغزال فعشاؤك.

قال: أحسنت أصاب الله بك الخير، من علّمك هذه الحكمة؟

قال: رأس الذئب المخلوع!!

ومقصود صاحب كليلة ودمنة أنه يخاطب السادة فيقول: انتبهوا فإن ما حلَّ بجيرانكم سيحل بكم، (إياك أعني واسمعي يا جارة).

يقول ابن القيم: نزل أعرابي على قوم وقد ضاع له بعير فقال: من القوم؟

قالوا: بنو سعد.

فارتحل إلى الوادي الآخر فقال: من القوم؟

قالوا: بنو سعد.

قال: في كلِ وادٍ بنو سعد.

فصارت مثلاً.

والمعنى أن في كل دارٍ مصيبة.

قال ابن مسعود: ما امتلأت دار حبرة إلا امتلأت عَبْرة - أي دموع -.

المقصود أن ننتبه لحالنا، فليس عندنا عهد من الله بعدم العقاب، بل العهد الذي بيننا وبين الله هو أن نطيعه وأن نتولاه وأن ننصر دينه.

أرسل عمر سعداً إلى القادسية فقال: يا سعد لا يغرنَّك قول الناس أنك خال رسول الله ﷺ، فإن الله ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، إنَّ أحبهم إلى الله أتقاهم له.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، فادّعوا ذلك كذباً فقال لهم تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

ومن الدروس من أزمة الكويت: أن نصلح الأحوال على كافة المستويات.

قال دريد بن الصمة لقومه: أرى ألا تغفلوا هذه الليلة فإن العدو مقبل.

قالوا: لا عدو وإنما هذه توجسات من كبر سنك وتخريفك.

فداهمهم العدو في الصباح واجتاحهم اجتياحاً ما سمع التاريخ بمثله.

فقال:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا في ضحى الغد

فقلت لهم ضنوا بجيش مدجج سراتهم في الفارسي المسَرَّد

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فالواجب علينا إصلاح الأمور والسير على منهج الله، فإن الله يمهل ولا يُهمل، فلنستعد لأسوأ الاحتمالات.

تقول أم الأندلسي الذي ضيع ملكه: ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال.

فأنت الذي ضيَّعت مجدك ومبادئك وخلودك.

ذكر ابن كثير أن معاوية رضي الله عنه حضر صفين.

فخرج علي للمبارزة وتعرفون من هو علي، فأشهر ما فيه أنه (حيدرة) أي: الأسد، وكان يقول:

أنا الذي سمَّتني أمي حيدره

كليث غابات كريه المنظره

أكيلكم بالسيف كيل السَّنْدَره[1]

(١) هذا الشعر أخرجه مسلم برقم (١٨٠٧).

فقال المسلمون لمعاوية: بارز أنت يا معاوية.

قال: والله لا أستطيع لعلي.

فقال معاوية: يا عمرو ـ أي ابن العاص ـ بارز الرجل.

قال: لا أستطيع.

قال: عزمت عليك أن تبارزه.

فخرج عمرو، فلما رأى علياً وضع سيفه ودرعه وقال: مكره أخاك لا بطل.

فهو أول من أطلقها.

وبدأت المعركة ففر معاوية، ولما وقف في الصحراء تذكر أبيات ابن الأطنابة الحجازي التي يقول فيها:

أبت لي عفتي وأبى حيائي ... وأخذي المجد بالثمن الربيح
وإعطائي على المكروه مالي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تُحمدي أو تستريحي

فتذكرها معاوية فعاد إلى الرَّدى وانتصر في آخر المطاف.

والمقصود أن أهل المبادىء يثبتون على مبادئهم.

لبّث قليلاً يشهد الهيجا جمل ... لا بأس بالموت إذا حلَّ الأجل

نعم.. لقد كان الأدب الجميل المؤثر يصنع من الجبان شجاعاً ومن البخيل كريماً ومن المتردِّد مقداماً.

● كان المحلق من أبخل العرب، وكان عنده ثمان بنات ما تزوَّجن لأن العرب تعفو عن كل شيء إلا عن البخيل فإنها لا تعفو عنه.

فتشاور مع امرأته في حال بناته.

فقالت: اذهب إلى الأعشى شاعر العرب فاستدعه وضيّفه وأهد له هدية لعله أن يمدحك فيسير مديحه في العرب فيتزوَّجون بناتك.

فذهب واستدعى الأعشى وضيّفه وذبح له ناقة وكساه جلباباً وأعطاه دنانير.

فلما خرج الأعشى وركب الناقة طرب وقال:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار باليفاع تحرّق
تبيت لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحَلّق

فذهبت هذه الأبيات كالسحر وكالماء وكالضياء في التيار حتى بلغت آذان العرب.

فما أتى شهر إلا وقد زوّج المحلّق بناته جميعاً!

● وقطري بن الفجاءة أحد الشعراء من الخوارج أراد أن ينهزم ويفر في معركة من المعارك فقال لنفسه يشجعها بالشعر:

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاعي

● عندما انتصر صلاح الدين على الصليبيين وفتح بيت المقدس طلب شمس الدين الحلبي خطبة الجمعة في بيت المقدس.

فلما حان الوقت دخل يوم الجمعة وأذن المؤذن في بيت المقدس فبكى المسلمون جميعاً مما أثاره ذاك الأذان من خلود وذكريات في أذهانهم.

فقام شمس الدين وكان شاعراً فابتدأ بحمد الله وأثنى عليه وذكر النصر ثم قال لصلاح الدين:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... وهكذا السيف لا سيف ابن ذي يزن

وهكذا يفعل الأبطال إن غضبوا   وهكذا يعصف التوحيد بالوثن

وأنا أذكر لكم قصة مشابهة استطراداً لذكر المكارم والخلود والمبادىء:

دخل ثلة من الشباب على عمر بن عبدالعزيز الخليفة الراشد الزاهد ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ مجدد أمر الأمة الإسلامية وحافظ مبادئها في القرن الأول.

فقال للأول: أنت ابن من؟

قال: أنا ابن الأمير الذي كان عند عبدالملك بن مروان على الكوفة.

فسكت عمر بن عبدالعزيز وأشاح بوجهه.

فقال للثاني: وأنت ابن من؟

قال: أنا ابن الوزير الذي كان عند الوليد.

فسكت ثم قال للثالث: وأنت ابن من؟ وكان حفيداً لقتادة بن النعمان الصحابي الذي شارك مع الرسول ﷺ في معركة أحد فضُربت عينه بالسيف فنزلت على خدّه فردَّها المصطفى ﷺ بيده.

فقال:

أنا ابن الذي سالت على الخدِّ عينه   فرُدّت بكف المصطفى أحسن الردِّ

فدمعت عينا عمر بن عبدالعزيز وقال:

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا

● لما أراد الأشتر قتل محمد بن طلحة بن عبيدالله السجّاد العابد قال له: لا تقتلني.

فقال الأشتر: ولِمَ لا أقتلك؟

قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

فسلَّ سيفه وقتله ثم قال:

وأشعث قوَّام بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شققت له بالسيف جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم
على غير شيء غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يندم
يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

والأدب أيها الإخوة يسلُّ السخيمة في النكبات وسوف أجعلها آخر فقرة.

● غضب الرسول ﷺ على كعب بن زهير غضباً شديداً وهو ﷺ إذا غضب كان كما قيل:

إذا نطقتَ وفيتَ فيما قلته لا من يكذب قوله أفعالها
أنت الشجاع إذا لقيت كتيبة أدبت في هول الرّدى أبطالها
وإذا غضبت فإنما هي غضبة في الحق ولا ضغناء

غضب على كعب بن زهير لأنه هجاه فأهدر دمه في العرب.

فذهب كعب يتقلب في قبائل العرب حتى وصل إلى أبي بكر الصديق فعرض عليه الحال.

فقال: أعندك شيء من الشعر؟

فصنف كعب قصيدة بديعة مليحة وأتى في صلاة الفجر وسلّم على الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله اسمع مني.

قال: «قل».

قال:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يفد مكبول

فقال ﷺ: «ومن سعاد»؟

قال: زوجتي.

قال: «لَمْ تبُن إذاً»[1].

إلى أن قال:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل

فسلَّ سخيمته. فرقّ قلبه ﷺ وأعطاه بُردته وأطلق قياده وجعله حرّاً من أمته شاعراً معه بسبب تلك الأبيات الرائدة التي حملت مبدأ وحباً.

● وأما النابغة الذبياني عندما غضب عليه النعمان بن المنذر فإنه استعجل القدوم عليه وقال:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي منهن قد كنت أنصب
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن بَلّغ الواشون عني وشاية لمبلغك الواشي أغش وأكذب

● يقول الذهبي: كان علي بن موسى الرضا ولي عهد المأمون، وكان ممدوحاً عند الشعراء وهو من أحفاد علي بن أبي طالب.

مدحه الناس إلا الحسن بن هانىء فاستدعاه علي بن موسى وقال: لماذا هجرتني ولم تمدحني؟

فقال معتذراً:

قيل لي أنت واحد من الناس في كل معنى من الكلام بديه
لك في جوهر الكلام بديع يجتني الدر من يدي مجتنيه
فعلام تركت مدح ابن موسى ذا الخصال التي تجمعن فيه

(١) سبق تخريجه ص(١٠٣).

قلتُ كيف أهتدي لمدح إمام   كان جبريل صاحباً لأبيه

وفي ختام هذه الرسالة: أرجو التنبيه إلى قضيتين:

أولاً: أننا قد أكثرنا من تمجيد وإطراء وفسح المجال للشعر النبطي وشعر الحداثة في صحفنا ومجلاتنا، وكأنه لم يعد عندنا شعر غير هذا الشعر.

فأما النبطي فأكثره غثاء كغثاء السيل: مدح رخيص، وغزل ساذج، وأبيات ركيكة غير متينة، وخطورة على اللغة العربية في كثرة ترداد هذا النوع من الشعر الرخيص.

وأما أدب الحداثة وشعرها فهو غموض يلف الكلمات، ومقاصد مشبوهة لا تخفى على المتأمل، وكلمات مرصوصة على الأسطر يجيدها كل من يقرأ ويكتب.

فلمَ كل هذا؟

إنني أطالب صحفنا ومجلاتنا والقائمين عليها بأن يفسحوا المجال قليلاً لأدب الأمة.. الأدب الإسلامي وإبراز دوره ونشر نتاج دعاته بدلاً من هذا التعتيم والمحاربة التي هي من المفرقات لوحدة الأمة، ومما يُسبب العداوة بين أبناء المجتمع الواحد.

فهذا نداء خالص أتمناه من هؤلاء القائمين على الصحف والمجلات بأن تتسع صدورهم للمخالف لهم في الرأي.

ثانياً: يجب أن نفرق بين الشعر والنظم، لأن بعض طلبة العلم لدينا يجيدون النظم ـ لا الشعر ـ فيغضبون ويتذمرون إذا لم تنشر الصحف شيئاً من نتاجهم بسبب ضعف السبك.

فالشعر شيء، والنظم شيء آخر.

الشعر عاطفة جيّاشة، ومعانٍ رقيقة، وعبارات متماسكة ومنسجمة.

وأما النظم فهو رصف للكلمات دون أن تشعر القارئ بأدنى عاطفة أو أحاسيس روحية، وإنما تطغى عليها الألفاظ والمصطلحات غير الشعرية.

يقول ابن دقيق العيد وهو فقيه شهير:

واختلف الأصحاب في وصلنا فرجَّحوا نجواك وهو الصحيح!!

فهذا قطعة من كتاب فقهي لا شعر عاطفي! وانظر إلى تزاحم الكلمات الفقهية في هذا البيت الوحيد (اختلف، الأصحاب، رجحوا، وهو الصحيح).

ويقول ابن القيم في مقطوعة جميلة ولكن آثار النظم بادية عليها:

قال ابن عباس ويرسل ربنا ريحاً تهز ذوائب الأغصان
فتثير أصواتاً تلذ لمسمع الإ نسان كالنغمات في الأوزان
يا خيبة الآذان لا تتعوضي بلذاذة الأوتار والعيدان

فهذه قطعة جميلة ويزيدها جمالاً أنها صادرة من رجل نحبه وهو ابن القيم الإمام السلفي القدير.

ولكن: هل هناك مقارنة بين هذه المقطوعة وبين شعر المتنبي مثلاً الذي كانت كل كلمة فيه تحمل معنىً بديعاً وعاطفة متأججة؟

لا أظن ذلك!

وإن كان ابن القيم عندنا يفوق مئات من مثل المتنبي أو غيره من الشعراء الذين لا يعيشون إلا لمبادئهم الرخيصة.

فليفهم ذلك.

والله أَعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

❁ ❁ ❁

صدر للمؤلف عن دار ابن حزم

* الإسلام وقضايا العصر.
* اقرأ باسم ربك.
* إلى الذين أسرفوا على أنفسهم.
* تاج المدائح.
* تحف نبوية.
* ترجمان السنة.
* ثلاثون سبباً للسعادة.
* حتى تكون أسعد الناس.
* حدائق ذات بهجة.
* دروس المسجد في رمضان.
* سياط القلوب.
* شرح نونية عائض القرني (شرح كاملة الكواري).
* العظمة.
* فاعلم أنه لا إله إلا الله.
* فتية آمنوا بربهم.
* قصة الطموح.
* لا تحزن.
* مجتمع المُثل.
* مملكة البيان.
* هكذا قال لنا المعلم.
* وجاءت سكرة الموت بالحق.
* ورد المسلم والمسلمة.
* ولكن كونوا ربانيين.